الجزء السابع

«الحكام الأفراد لهم مقاطعات فردية، والملوك الأفراد لهم ممالك منفردة، ولكن بطرس يحكمهم جميعا...».

- إنوسنت الثالث

«لقد أحببنا الحياة فى الفقر. وهجرنا الكنائس. وكنا جاهلين ننقاد للجميع...».

- سان فرنسيس الأسيسى

«إن الدولة جماعة كاملة...»

- سان توماس أكويناس

البحث عن توازن جديد

أوائل ومنتصف القرن الثالث عشر

الفصل التاسع عشر

سلام إنوسنت الثالث

١ - إعادة تثبيت الزعامة البابوية:

ثمة تراث فى تاريخ البابوية مؤداه أن الكرادلة غالبا ما كانوا يتأرجحون بين اختيار البابوات الأقوياء والبابوات الضعفاء مما يحقق دورات تبادلية بين البابويات العدوانية فالاصلاحية ثم الهادئة فالمحافظة. فمنذ موت اسكندر الثالث سنة ١١٨١ م اعتلى العرش البابوى عدد من الرجال الصالحين، ولكنهم كانوا ضعافا وظهروا فى حال من الجمود والشلل بفعل المشكلات الرهيبة التى أثرت على الكنيسة من جراء التحديات التى ظهرت فى القرن الثانى عشر فى مجالات التعليم والتدين والسلطة. وكانت الزعامة البابوية تتحول إلى عامل تافه فى الحياة الأوربية بدرجة جعلت الكرادلة يتطرفون فى الاتجاه الآخر سنة ١١٩٨ فقد اختاروا أقدر أعضاء مجمع الكرادلة، وهو لوثاريو كونتى، الذى اتخذ لقب إنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) وعندما اعتلى أنوسنت الثالث العرش البابوى كان عمره سبعة وثلاثين عاما فقط، أى أنه كان صغيرا على البابوية بشكل واضح. وقد نشأ إنوسنت الثالث فى إحدى العائلات الارستقراطية الرومانية البارزة. وكان رجلا يتمتع بطاقة غير محدودة، وقدرة فكرية عالية، ومواهب خارقة فى الزعامة والادارة. فقد كان من رجال القانون الكنسى، عالى القدرة، وكان يحتمل أن يحرز سمعة كبيرة كلاهوتى لو كانت لديه فسحة من الوقت أو كان به ميل إلى هذا. وكان على وعى تام بالمشكلات التى تواجهها البابوية فى كل جانب، ولم يكن يخالجه شك فى قدرته على إيجاد الوسائل لمعالجتها، وكانت درجة الثقة بالنفس الفائقة التى تميز الرجال ذوى الصفات الخارقة تمتزج فى حالة إنوسنت بإحساس غامر بتراث المنصب البابوى وسلطته. وكان يعتقد أن «كل شىء يدخل اختصاص البابا»، وأن القديس بطرس فوضه المسيح «لا ليحكم الكنيسة العالمية فقط، وإنما لكى يحكم العالم بأسره». وكان إنوسنت مولعا بنظرية سلطة الهيئة الكنسية، التى يعلو فيها سيف الروح على سيف الأرض،

والتى فيها يتشابه خضوع الملكية للقساوسة مع اعتماد القمر على الشمس. وعلى أية حال، لم يكن إنوسنت رجلاً ثورى المزاج، ولكنه كان صاحب مزاج متحفظ بناء؛ فلم يكن تكرارا لجريجورى السابع. ولم يكن قصده أن يشن هجوما أخرويا على القوى التى كانت تهدد بالقضاء على زعامة الكنيسة فى مجتمع العصور الوسطى؛ وإنما كان يقصد أن يفرض السلطة البابوية على مجتمع غرب أوربا المتغير بوسائل متعددة، وأن يتحكم فى الآثار الناجمة عن التعليم والتدين والسلطة فى القرن الثانى عشر. كما كان يرغب فى توجيه هذه القوى الجديدة فى قنوات يمكن أن تعيد النفوذ الكنسى فى أوربا. لقد كان إنوسنت يريد توازنا جديدا بين الكنيسة والعالم يحقق الاستقرار للمجتمع الذى يرزح تحت تأثير الأفكار والمؤسسات الجديدة للنظام السياسى والفكرى والدينى. ويرجع الفضل فى ذلك القدر الكبير من النجاح الذى حققه إلى مقدرته، وبصيرته النافذة، وعزمه الذى لا يلين، وحين مات، تحت وطأة الارهاق من العمل، كانت الزعامة البابوية فى أوربا قد استعادت ثباتها ورسوخها، كما كانت الكنيسة تشن هجماتها المضادة على جميع الجبهات ضد الهرطقة، والفوضى الفكرية والسلطة العلمانية، ومع ثلاثينيات القرن الثالث عشر كانت روح جديدة من التوافق والتفاؤل تشيع فى الحياة الأوربية. وبدا وكأن القوى التى فسخت عرى النظام العالمى فى العصور الوسطى قد توقفت ونحيت جانبا بفضل السلام الذى شاده إنوسنت الثالث.

كان الأساس الضرورى لكل الانجازات الأخرى فى بابوية انوسنت، على حد تصوره هو، أن يعيد بناء الادارة الكنسية. وكان هذا يعنى التناول العقلانى العام وتوطيد السلطة المركزية بحيث تحقق المذاهب التى كان رجال القانون الكنسى يدعون إليها، وهى مذاهب تقول بسمو السلطة البابوية فى الكنيسة. وقد لخصت الاصلاحات التى أنجزها أنوسنت خلال بابويته وتأكدت فى المراسيم التى أصدرها مجمع اللاتيران الرابع سنة ١٢١٥، وهو المجمع الذى كان أحد أهم ثلاثة مجامع مسكونية فى الكنيسة الكاثوليكية، أما المجمعان الآخران فهما مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ومجمع ترنت فى القرن السادس عشر. وأقر مجمع اللاتيران عدد الطقوس المقدسة المسيحية سبعة طقوس ما تزال قائمة حتى اليوم: التعميد، وتثبيت العماد، والزواج، والمسح النهائى بالزيت (الذى يحدد مراحل حياة الانسان)، والتناول، والاعتراف، ورسامة القساوسة (أولئك الذين يحتلون مكان القلب من المسيحية اللاتينية). وكان الأسقف هو فقط الذى يمكنه القيام بتثبيت العماد، ورسامة القساوسة. ولم تكن

الكنيسة فى العصور الوسطى الباكرة قد حددت إطلاقا عدد الطقوس. وكان داميانى قد أعد قائمة بأحد عشر طقسا، يدخل ضمنها رسامة الملوك. وكان كتاب اللاهوت الثابت، الذى كتبه بطرس اللمباردى فى القرن الثانى عشر تحت اسم «الأحكام Sentences»، قد أعد قائمة بسبعة طقوس، وتقبل مجمع اللاتيران هذا الرأى. وأصدر المجمع قرارًا بأن على كل عضو فى الكنيسة أن يعترف بخطاياه إلى قسيس، ويتناول القربان مرة واحدة فى السنة على الأقل كلما تيسر له ذلك. وكان هذا بمثابة إعادة تأكيد لسلطة القساوسة على العلمانيين، وقصد به أن يكون تحديا مباشرا للمذاهب التى تنادى بها الهرطقات المعادية لسلطان الكنيسة. وكوسيلة لفرض المزيد من القيود على حركة التدين الجديدة وتأثيراتها المدمرة، أعلن مجمع اللاتيران أنه لن يكون هناك قديسون جدد وذخائر مقدسة جديدة دون اعتراف قانونى من البابوية بذلك، كما أعلن أنه يجب وقف تكاثر النظم الديرية.

وتزايد نظام المندوبين البابويين كوسيلة لأحكام السيطرة البابوية على أساقفة غرب أوربا بشكل كبير على يد إنوسنت الثالث، وبينما كان بابوات القرن الثانى عشر يعينون كبار الأساقفة فى مختلف بلاد أوربا كمندوبين بابويين، رغبة فى كسب المشاعر الوطنية، عمد إنوسنت الثالث إلى اختيار الكرادلة الايطاليين ليمثلوه لدى الكنائس الاقليمية. وفى مقابل ذلك، تعين على الأساقفة أن يولوا قدرا أكبر من الاهتمام بشئون اسقفياتهم، ولا سيا فيا يتعلق بنوعية رجال الكنيسة العاملين تحت حكمهم. وكان على الأساقفة ومساعديهم أن يقوموا بزيارات سنوية للأديرة فى اسقفياتهم، ويفتشوا بدقة عن رجال الاكليروس فى الكاتدرائيات والابرشيات لكى يتأكدوا من جدارتهم بمناصبهم. وقد أكد إنوسنت الثالث، بنجاح كبير، حق البابا فى تعيين الأساقفة فى حالات معينة: فى حالة النزاع حول الانتخابات والذى يطلب من البابا حله، وإذا كان هناك منصب أسقفى شاغر على مدى ستة شهور، أو إذا مات الأسقف السابق وهو فى زيارة لروما. وقد أتاحت المنازعات الكثيرة التى نشبت حول الانتخابات الأسقفية وجو روما غير الصحى، فرصا كبيرة أمام البابوية فى القرن الثالث عشر لكى تزعم أن سلطة التعيين «انتقلت» إلى البلاط البابوى. وهكذا شهدت بابوية إنوسنت الثالث تزايدا كبيرا فى سلطات البابوية القانونية باعتبارها المحكمة العليا فى العالم المسيحى، كما شهدت تطوير المؤسسات القانونية للكنيسة. وكان لتدعيم النظام الادارى فى الكنيسة وزيادة سيطرتها المركزية على هذا النحو أثره العاجل فى تحسين صفات كبار الكنسيين وصغارهم على السواء. فقد

كشفت الزيارات التى كان يقوم بها كرادلة القرن الثالث عشر عن مئات الحالات من عدم الكفاية والقصور فى أداء الواجب بين رجال الكنيسة الديريين والأبرشيين، وفى المقابل باتت الأسقفية رهينة الضغط المستمر والتفتيش من جانب البابوية حتى تحقق رسالتها الرعوية. لقد كشف إنوسنت عن أن آثار حركة التدين الجديدة قد خرجت عن نطاق السيطرة بسبب قصور الإدارة، كما أوضح أن أفضل وسيلة لصرف الناس عن حماستهم للقديسين الهراطقة هى أن نقدم للعالم رجال الكنيسة الكاثوليك الذين يميزهم وعيهم، وحميتهم، وتعليمهم.

كان البنيان الادارى الهائل للبابوية، شأنه شأن أى جهاز إدارى آخر فى الحكومات الأوربية، يحتاج إلى قدر هائل من المال لكى يواصل عمله. وكان الكرادلة هم أمراء الكنيسة؛ إذ أنهم غالبا ما كانوا ينحدرون من عائلات مرموقة من الطبقة الارستقراطية الايطالية، وكانوا معتادين على حياة الرفاهية؛ وفى جميع الأحوال كان البلاط البابوى، الذى إدعى لنفسه الأهمية القصوى فى العالم المسيحى، لا يستطيع أن يظهر فقيرا بالمقارنة مع بلاط حكام منطقة شمال الألب. فضلا عن أنه كان على البابا أن يجد المال اللازم لتمويل المغامرات السياسية والعسكرية إذا ماكان يريد فعلا أن يتصدى للسلطات العلمانية القوية فى أوربا.

فمن أين كان يمكن الحصول على الأموال اللازمة لهذا؟ كانت للبابا، مثله مثل أى ملك، ممتلكاته التى هى الدول البابوية؛ بيد أن هذه لم تكفى للحفاظ على الادارة البابوية، والدبلوماسية والبلاط والجيش البابوى. وكان عليه أن يفرض أشكالا جديدة من الضرائب مثلما كان يفعل ملوك غرب أوربا. فقد كشفت ضرائب العشور البابوية الخاصة التى فرضت لتمويل الحملة الصليبية الثالثة عن مدى ضخامة الثروة التى يمكن الحصول عليها بفرض ضريبة عامة على رجال الكنيسة، كما كشفت عن مدى سهولة إدارة الضريبة، بالنظر إلى خضوع الاكليروس لسلطة البابوية ووجود موظفى الضرائب المخلصين المتعلمين فى خدمة الكنيسة. وبناء عليه فرض انوسنت فى سنة ١١٩٩ أول ضريبة دخل عام على رجال الكنيسة الأوربيين لمواجهة احتياجات البابوية. وكان لنجاحها العظيم أن صارت هى الأولى بين العديد من الضرائب المتنوعة والتى فرضتها بابوية القرن الثالث عشر على رجال الكنيسة. هذا الدخل الثابت لم يسهل عملية تحسين الأداء البابوية؛ وإنما أتاح أيضا للبابوية الموارد الاضافية التى كانت تحتاج إليها بسبب تورطها المتشابك فى السياسة الأوربية.

كان أمن البابوية فى روما هو أول ضمان لحرية التصرف البابوى تجاه ملوك شمال أوربا. وقد عمل إنوسنت بجد منذ بداية عهده على تقوية السيطرة البابوية على مدينة روما والدول البابوية التى كان يسعى إلى توسيعها، على حين صارت قوة الامبراطور وقدرته على التدخل محدودة، بسبب موت هنرى السادس المفاجئ وما أعقبه من نزاع حول العرش الألمانى. وقد مضى على إنوسنت وقت عصيب وهو يحاول تأكيد سيطرته الكاملة على حكومة المدينة الخالدة؛ إذ كان النبلاء الفيورون والكوميون يحاربونه فى كل خطوة، ولكن بحلول سنة ١٢٠٥ كان قد وطد دعائم سيطرته فى مدينته. وبما أن روما كانت تحيا إلى حد كبير على عمل البلاط البابوى، فإنها لم تستطع الصمود طويلا أمام طلب البابا بأن يسيطر على حكومتها البلدية. بل إن إنوسنت أحرز نجاحا أعظم فى ميراث القديس بطرس، ففى خلال بابويته كانت الدول البابوية قد وصلت إلى الحدود التى حافظت عليها حتى منتصف القرن التاسع عشر.

وإذْ ضمن لنفسه الأمن فى وطنه، استطاع إنوسنت أن يكرس مواهبه السياسية الفائقة فى تحديد علاقات البابا مع ملكيات الشمال الكبرى. وكانت «الشئون الامبراطورية»، على حد تعبير الدوائر البابوية، هى أكثر المسائل السياسية الحاحا. إذ أن هنرى السادس كان قد أخاف البابوية، وكان انتباه إنوسنت موجها لفصل مملكة صقلية عن ألمانيا مرة أخرى، وللحيلولة دون مواجهة البابوية مرة أخرى بخطر يتهدد استقلالها كما فعل هنرى السادس. وقد أتيحت له فرصة أكبر لتحقيق أهدافه بتجدد الحروب الاقطاعية حول التاج الألمانى بين الهوهنشتاوفن والجلفيين، وهى الحروب التى زجت بألمانيا فى خضم الحرب الأهلية عقب موت هنرى. وقد اختار الهوهنشتاوفن وحلفاؤهم فيليب دوق سوابيا، أخا هنرى، ملكا، على حين انضم بعض الأمراء الألمان الذين كانوا يخشون الهوهنشتاوفن إلى الفريق الذى اختار أوتو الرابع البرونسويكى **Otto IV of Brunswick** ابن هنرى الأسد. وقد تجاهل كل من الفريقين حقوق الطفل فردريك الثانى، ابن هنرى، الذى بقى فى صقلية مع أمه. وحاول كل فريق أن يحصل على تأييد انوسنت الثالث لأن البابا كان هو فقط الذى يستطيع أن ينصب أحد المتنافسين امبراطورا. وانتظر سنوات ثلاث قبل أن يصدر قراره، وكان هدفه أن يتيح للحرب الأهلية أن تدمر المزيد من قوة التاج الألمانى. وأخيرا، أصدر قراره فى سنة ١٢٠٠ لصالح أوتو الذى اعترف بحدود الدول البابوية، وسلم ما بقى من سلطة ملكية على الكنيسة الألمانية، كما

وعد بعدم التدخل فى ايطاليا. وبدا وكأن انوسنت قد أزاح الخطر الألمانى على البابوية نهائيا. ولكن فيليب راح ضحية الاغتيال فى شجار شخصى سنة ١٢٠٨ وتزوج أوتو أخته ليصبح صاحب العرش دون منازع. وسرعان ما سار أوتو على السياسة التقليدية للملوك الألمان وتحرك صوب شمال إيطاليا. وأحس إنوسنت بمشاعر الخيبة والغضب تجتاح صدره، ولكنه لم يفزع، لأن الملك الفلفى كان زعيما قاصرا لا يستطيع الوقوف أمام البابا. وفى سنة ١٢١٢ اعترف انوسنت بالشاب فردريك الثانى ملكا على ألمانيا، بعد أن حصل من فردريك على وعد بأن يتنازل عن صقلية ونابولى حين يوطد دعائم حكمه فى ألمانيا. ثم كرس انوسنت نفسه لتنظيم اتحاد كبير بين البابوية، وفردريك الثانى، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ضد أوتو وجون ملك انجلترا، الذى تحالف بالزواج مع البيت الفلفى، كان هذا هو المثال الأول على الصدام بين التحالفات الدولية فى التاريخ الأوربى. وتم حسم الصراع فى معركة بوفينيس Bouvines سنة ١٢١٤، وهى المعركة التى كان لها أثر شامل على التطور السياسى فى أوربا القرن الثالث عشر. فقد ألحق فيليب أوغسطس هزيمة ساحقة بأوتو، وبذلك فتح الطريق أمام فردريك للفوز بالعرش الألمانى. ومات إنوسنت سنة ١٢١٦ وهو على قناعة تامة بأنه قد حل المشكلة الألمانية. وكان فردريك الثانى، الذى كان انوسنت يعجب به شخصيا ويثق فيه، يتمتع بتأييد النبلاء، وكان قد وعد بالتنازل عن التاج الصقلى بمجرد الحصول على تأييدهم. كذلك لم يكن يبدو أن الامبراطور الألمانى سوف يكون مصدر خطر على البابوية فى المستقبل؛ اذ تقلصت سلطة وموارد الملكية بفعل عشرين عاما من الحرب الأهلية، وبفعل التنازلات التى قدمها المتنازعون على العرش للأمراء الألمان الذين دعموا سيادتهم الاقليمية، وبذلك تقوض العمل الذى أنجزه فردريك الأول وهنرى السادس.

كان انتصار انوسنت فى الشئون الامبراطورية يسير فى خط مواز لعلاقاته مع الملكية الإنجليزية والملكية الفرنسية. فقد حط من شأن ملك أنجلترا كما حسن من احتمالات التحالف الفرنسى البابوى. إذ كانت البابوية قلقة على الدوام من أن تتورط فى نزاع مع الملك الانجليزى، ولكن انوسنت خاض هذا النزاع وأحرز فيه انتصارا كاملا. وقد نشب النزاع بين الملك جون والبابا بسبب الخلاف حول انتخاب أسقف كانتربورى، الذى لجأ إلى روما وفقا لشروط القانون الكنسى الجديد. وكان انوسنت قد اعترض على المرشحين الذين تقدموا إليه وعين

بـدلا منهم ستيفن لانجتون Stephen Langton، وهـو رجل انجليـزى كان يشتغـل باللاهوت فى باريس، وكـان فى ذلك الـوقت كاردينـالا فى البلاط البـابوى. واعتـبر جون ذلك انتهاكا صارخا للسلطة الملكية التقليدية على الكنيسة الانجليزية، بل أنـه اعتبر لانجتون عميلا للبابوية ورفض أن يعترف بانتخابه كبيرًا للأساقفة ومنعه من دخول انجلترا، ونشب صراع مريـر استخدم فيـه كل من الملك والبـابا اجـراءات متطرفة. فقد وضع انوسنت انجلترا تحت وطأة قرار بـالحرمـان أوقف كل الخـدمات الكنسيـة؛ أما جـون فقد استـولى على جـزء كبير من الأرض الـزراعيـة المملوكـة للكنيسة الانجليزية. وأخيرا شجـع انوسنت فيليب أوغسـطس على الاستعـداد لغزو انجلترا تحت الراية البابوية، أمـا جون الـذى خشى أن يفقد انجلتـرا أمام عـدوه اللدود مثلما فقـد معظم ممتلكـاته فى القـارة، فقـد خضـع للبـابـا. ولم يكتف بقبـول لانجتون كبيرا للأساقفة ولكنه جعل من نفسه فصـلا اقطاعيـا تابعـا للبابـا وحول انجلترا إلى اقطاع بابوى. وبـدا وكأن الحـوادث المثيرة قـد أوضحت أنه لا يـوجد ملك يصمد طويلا أمام الإرادة البابوية.

وحتى فيليب أوغسـطس حليف البابـا، استفز غضبـه. فقد تنـازعا عـلى مسألـة خاصة، ولكن انوسنت، باعتباره حامى حمى الأخلاق والعقيدة فى أوربـا، سخر كـل السلطات الدينية والأخلاقية التى فى متناوله لكى يرغم فيليب على الرضوخ للارادة البابوية. فقد كان فيليب قد دخل فى عقد زواج مع أميرة دانمركية اسمها انجبورج Ingeborg فى سبيل الحصول على مساعدة الاسطول الدانمركى فى إحـدى مغامـراته ضد ملوك بيت أنجو الانجليز. وحين وصلت الاميرة الدانمركية الضخمة إلى فرنسـا، غير فيليب رأيه ورفض أن يتخذها زوجة. واستغرق الأمر عدة سنـوات حتى اعتلى انوسنت عرش البابوية فاتخذ اجراءاتـه الصارمـة المعتادة، بما فى ذلك اصـدار قرار الحرمان، حتى أجـبر فيليب على التسليم. وسـرعان مـا تم التوصـل إلى حل وسط يرضى الفرقاء. هذه الحادثة الغريبة تكشف عن فـرط ثقة انـوسنت الثالث بنفسـه وفى سلطان البـابويـة، وعن مدى استعـداده لاستخدام كـافة الأسلحـة التى بمتناول البابوية حتى فى المسائل الصغيرة. وعلى العموم، كانت علاقات إنوسنت بفـرنسا فى صالح الملكية الكابية. ذلك أن التحالف الذى أقامه مـع فيليب أوغسطس ضـد أوتو الرابع وجون أدى إلى تكثيف الارتباط الطويل المدى بين البابوية وملوك آل كابيه، كما ستر سياسة فيليب التوسعية وأسـاليبه الخـادعة بقنـاع من الأخلاقيـات. وكانت أكـبر أفضال البـابويـة على الملكيـة الفرنسيـة هى الحملة الألبيجنسية، التى فتحت

جنوب فرنسا ثم مهدت السبيل لضم هذا الاقليم إلى التاج الفرنسى. ولم يشارك فيليب أوغسطس فى الحملة الصليبية الألبيجنسية، وربما لم يدرك مغزاها تماما. ولكن هذه الحملة الصليبية قضت على قوة وسلطان النبلاء فى لانجدوك وجعلت خضوع جنوب فرنسا لآل كابيه أمرا محتوما.

كان انوسنت يأمل أصلا، فى اعادة الألبيجنسين إلى حظيرة الكنيسة بارسال المبشرين البارزين لفضح اخطاء «الأطهار Cathari». ولكن هذه الوسيلة لم تحقق سوى قدر ضئيل من النجاح؛ إذ كانت المذاهب الألبيجنسية قد توغلت فى أعماق البيئة الفكرية والاجتماعية فى جنوب فرنسا. وكان مصرع المندوب البابوى فى سنة ١٢٠٨، الذى شاع أن لكونت تولوز يدا فيه، قد حفز انوسنت على أن يتخذ تدابير أكثر صرامة؛ أى شن حملة صليبية ضد الهراطقة. وكان انوسنت قد تعود فعلا على استغلال المثال الصليبى فى بعض الأغراض البابوية. وكانت الحملة الصليبية الرابعة، التى أعلن عنها انوسنت قد تحولت على أيدى البنادقة عن هدفها الأصلى، وهو محاربة المسلمين، إلى الهجوم على القسطنطينية والأستيلاء عليها. وسرعان ما تقبل انوسنت هذا التغير فى الخطط لأنه رأى فى المملكة اللاتينية فى القسطنطينية وسيلة لاعادة البيزنطيين إلى الاتحاد مع الكنيسة اللاتينية تحت سلطان البابوية. وإذا كان قد امكن توجيه حملة صليبية ضد القسطنطينية، فمن المؤكد إذن أنه يمكن توجيهها ضد الهراطقة، الذين كانت مذاهبهم الهدامة، وأخلاقياتهم العكسية، ومعقلهم فى جنوب فرنسا، خطرا يتهدد وحدة العالم المسيحى اللاتينى. وقد استجاب نبلاء شمال فرنسا بشكل حماسى لأعلان انوسنت الحملة الصليبية الألبيجنسية. واعتبروها فرصة من السماء لكى يستولوا على اقطاعات فى اراضى لانجدوك الخصبة. وقد ارتكزت الحملة الصليبية ضد الألبيجسيين على الرغبة فى انتزاع الأرض. ذلك أن بارونات الشمال تحت قيادة سيمون المونتفورتى، الذى كان من السادة الاقطاعيين فى جنوب فرنسا، هاجموا جموع الهراطقة وغيرهم دونما تمييز، وارتكبوا حمامات الدم فى مدن الجنوب. ونتيجة لهذا، قام النبلاء الجنوبيون، سواء كانوا متعاطفين أو غير متعاطفين مع مذاهب الأطهار، بمقاومة الصليبيين مقاومة عنيفة، كما أن ملك أرغونه، الذى كان أبعد ما يكون عن الهرطقة، قد هب لمساعدة كونت تولوز. وفى معركة موريه Muret سنة ١٢١٣ لقيت القوات الجنوبية هزيمة نكراء. وبينما استغرق الأمر اثنتى عشرة سنة أخرى للقضاء على كافة جيوب المقاومة، تأكد انتصار الشمال على المدى البعيد. وبشن هذه الحملة الصليبية ضد الألبيجنسيين

مهّد إنوسنت سبيل استيلاء التاج الفرنسي على أراضى لانجدوك الخصبة، وهو الأمر الذى تم نهائيا فى عشرينيات القرن الثالث عشر. وقد واجه انوسنت انتقادات نبلاء الجنوب فى أيامه، كما انتقده بعض الكتاب المحدثين لدعوته إلى هذه الحملة الصليبية ضد الأطهار. وقد قيل أنه أساء استخدام الحركة الصليبية ودمر حضارة راقية فى جنوب فرنسا. وهناك قدر من الحقيقة فى كل من التهمتين، إلا أنه لم يكن يملك بديلا آخر إذا كان يريد أن يستأصل داء الكاثارية السرطانى من جسد المسيحية.

وبشموليته النمطية لم يكن بوسع انوسنت أن يترك مهمة استئصال شأفة الهراطقة ومحاكمتهم للموظفين الكنسيين فى جنوب فرنسا، وهم الذين لم يكن يثق فيهم بأية حال. فقد كان يرسل المندوبين مع تفويضهم سلطة عقد المحاكمات للهراطقة. ومن هذه السوابق خرجت محاكم التفتيش البابوية العامة التى تأسست رسميا سنة ١٢٣٣. وكان الخط الرئيسى لعملها واجراءاتها قد تحدد بالفعل على يدى انوسنت: فقد كان عليها أن تستخدم الأجراءات القانونية الكنسية الرومانية، التى كانت تبيح التعذيب كوسيلة لتعقب الهراطقة والقبض عليهم، وكان أولئك الذين يرفضون الاعتراف، أو يعترفون ثم يعودون إلى الانكار، يعانون الموت حرقا. وكان انحياز محاكم التفتيش ضد المتهمين مثالا على أية محكمة رومانية تناولت قضية تتعلق بالوعى والضمير.

لم يكن ثمة شيء خارج اختصاص البابوية، كما قال انوسنت، وقد أحس أنه مجبر على اضفاء الصفة القانونية، لا على مسألة الهراطقة فقط، وأنما أيضا على مسألة معاملة اليهود. فقد منع محاولات تنصيرهم بالقوة، ولكنه كان يحبذ عزلتهم، ونبذهم كنفايات اجتماعية من المجتمع الأوربى. فقد أصدر مجمع اللاتيران الرابع قرارا يلزم اليهود بارتداء شارات صفراء حتى يمكن تمييز أولئك المنبوذين بسهولة. وصار هذا الطلب قضية تاريخية جليلة القدر فى غرب أوربا. فقد حاول بعض الكتاب اخفاء عيوب سياسة انوسنت تجاه اليهود؛ وزعموا أنه كان يريد نبذ اليهود لكى ينقذهم من أية مذابح جديدة، وهى المذابح التى كانت مرضا مستوطنا فى الحياة الأوربية نتيجة الاشاعات التى انتشرت عن طقوس الدماء. ولايبدو أن انوسنت كانت تحركه دوافع وأسباب انسانية. فقد كان شريكا فى المسيحية العسكرية فى زمانه، وكان الخطر الذى يتهدد الكنيسة من موجة معاداة سلطة الكنيسة يميل بزعماء الكنيسة فى اتجاه عدم التسامح والقسوة فى التعامل مع أولئك

الذين يختلفون مع العقيدة الكاثوليكية. ولم يكن انوسنت ليتوافق مع المحاولات التى جرت لتصويره فى صورة الرجل الليبرالى. فقد كان لديه اعتقاد لا يتزعزع بصحة العقيدة الكاثوليكية وصحة تقاليد وثراث سلطة الكنيسة والنظرية البطرسية، وهبة قنسطنطين. وكان استبداديا فى مذهبه وفى شخصيته على السواء وعلى مدى ثمانية عشر عاما كرس انوسنت مواهبه الادارية والقيادية الهائلة لتدعيم هذا المذهب وحقق نجاحا بعيد المدى.

ولكن انوسنت أدرك أن أساليبه الجديده ستكون ذات أثر قليل فى مواجهة مشكلات التدين والتعليم. إذ أنه كان قد أعاد تنظيم الكنيسة، واخضع الملوك، وتسبب فى شن الحرب ضد أسوأ الهراطقة، ولكن أيا من هذه الفعال لم يكن ليستطيع حل الصراع الذى نشب فى أذهان الناس من جراء آثار حركة التدين الجديدة والتحدى الذى طرحه العلم الأرسطى. ولا يقلل من انجازات انوسنت كادارى وزعيم، أنه كان يدرك مدى الحاجة إلى وسيلة أكثر ايجابية مما اتخذه هو نفسه، وأنه تحقق من أهمية وقيمة العمل الذى قام به كل من سان دومينيك وسان فرنسيس.

٢ - المثل العليا الدومينيكانية والفرنسسكانية:

يكشف تأسيس منظمتى الدومينيكان والفرنسسكان عن حيوية حضارة العصور الوسطى المستمرة. فقد كانت تجسد استغلال جماعات الرهبان العاملة فى الدنيا، والتى كانت من نتاج تنظيم حركة الزهد فى القرين الثانى عشر، لمواجهة الآثار الناجمة عن حركة التدين والتعليم الجديدة ولتأكيد زعامة الكنيسة فى المجتمع الأوربى، ومن ثم استكمال أسس الوفاق الجديد الذى كان انوسنت يعمل على بنائه، إذ كان النظام الدومينيكانى يواجه القوى التى تحدت نظام العصور الوسطى بتعليم حقائق العقيدة الكاثوليكية وكشف توافقها مع العلم؛ أما المدخل الفرنسسكانى فكان عاطفيا أكثر منه فكريا. فقد كان يستهوى أفئدة الناس أكثر مما يروق لعقولهم. وقد تأسس على مقدمة منطقية بأن التجربة الدينية الفردية العميقة يمكن أن تقوى العقيدة ولاتهدمها. وكان تطور الفكر، والدين، والثقافة فى القرن الثالث عشر نتاجا لأعمال الدومينيكان والفرنسسكان، ومضامين مثلهم العليا.

كان نظام المبشرين، حسب اسمه الرسمى، من نتاج الصراع ضد الألبيجنسيين. إذ قام قس أسبانى أسمه دومينيك، كان يقوم بالتبشير ضد الهراطقة فى لانجدوك

بتجميع عدد من الأتباع ذوى الميول العقلية المتقاربة، والذين يهدفون إلى حياة قديسية، ليكونوا زهادا مثل الكاملين الأطهار، ولكى يقوموا فى الوقت نفسه بالوعظ وطلب الغفران. وفى سنة ١٢١٦ حاز سان دومينيك على موافقة البابا على النظام الجديد الذى سار على القواعد المأخوذة عن الرهبان الأوغسطينيين Austin والبريمونتريين Premonstartensians. وقد اجتذب هذا التنظيم منذ البداية عددا من الشباب الذين كانوا يتناسبون مع مستواه السامى؛ إذ كان ينبغى على المرشحين أن يكونوا رجالا ذوى نزعة تقشفية وقدرات عقلية من الدرجة الأولى. وفى النظام الدومينيكانى كانت المقدرة هى كل شىء، بل أنها كانت تبطل مزايا التفوق. كان موظفو النظام مسئولين عن لقاءات مجلس الرهبان العام، وكان المندوبون المرسلون إلى هذه الاجتماعات العامة ينتخبون تأكيدا لأن أفضل الرجال سيقع عليهم الاختيار فى الغالب، بغض النظر عن أعمالهم أو طول الفترة التى قضوها فى الجماعة. وكان أعضاء جماعة المبشرين رجالا سخروا شخصياتهم ومواهبهم فى خدمة الكنيسة مثل دومينيك نفسه. فقد كان الدومينيكان هم قوات الطليعة الفكرية فى كنيسة القرن الثالث عشر. وكان هؤلاء هم رجال الأكليروس المثاليين الذين أداروا المحاكم الجديدة الموجهة ضد الهراطقة، وفى القرن الثالث عشر كانت محاكم التفتيش عبارة عن مؤسسة دومينيكانية إلى حد كبير. كذلك فإن أهداف وتنظيم الجماعة الجديدة، والأفراد العاملين فى صفوفها، جعلوا منها أداة مناسبة للتصدى للتحديات الأرسطية. وعلى مدى ثلاثين أو أربعين سنة، كانت النصوص الأرسطية ترد باستمرار من العالم العربى، وكانت كليات الفلسفة واللاهوت فى جامعة باريس، وغيرها من المؤسسات، مشغولة تماما بمحاولة ربط هذا العلم الجديد بتراث الكتاب المقدس، وتفاوتت هذه الجهود فيما أحرزته من نتائج. وقد أقبل الدومينيكان على هذه المهمة فى حماسة وشغف، وبمنتصف القرن كانت لهم السيادة فى جامعة باريس. ولكونهم علماء ومفكرين اقتنعوا بأن الدين والعلم حقيقة واحدة. وباعتبارهم المدافعين عن مذهب الكنيسة، أحسوا بمدى الحاجة إلى دفاع فلسفى عن المذهب المسيحى، وكان أحد الأساتذة الدومينيكان فى باريس، وهو توماس أكويناس، هو الذى صاغ هذا النظام الفكرى صياغة محددة فى الربع الثالث من القرن الثالث عشر.

كانت رسالة الدومينيكان موجهة إلى المتعلمين؛ إذ أخذ الفرنسسكان على عاتقهم مهمة أكثر صعوبة وهى محاولة التوافق مع تأثير التدين على البورجوازى العادى،

والسيطرة على موجة التدين الحضرية التى أنتجت الحركة الكبرى لمعاداة السلطة الكنسية. ولم تكن فكرة سان فرنسيس St. Francis of Assisi (١١٨٢-١٢٢٦) أن ينظم اتباعه فى جماعة رهبانية مثل الدومينيكان. لأنه ببساطة كان يدعو الناس إلى أن يحيوا حياة المسيح قدر طاقاتهم، وبذلك تكون الحياة القديسية لأتباعه «الأخوة الصغار fratres minores“ كافية لأن تغسل قلوب الناس بالقدوة الحسنة وتحولهم صوب طرق أفضل. وكانت تلك أكثر الوسائل مباشرة لعلاج مشكلات المجتمع المتنصر. ذلك أن أسوار الكبرياء والكراهية التى أوجدتها تعقيدات الحياة الاجتماعية لم يكن من الممكن إزالتها سوى بإظهار الحب المسيحى. وكانت هذه هى أبسط وأعمق رسالة ممكنة، وأزعجت مدلولاتها قادة الكنيسة بقدر إعجابهم بأعظم قديس أنجبته حضارة العصور الوسطى، الرجل الذى سار على درب المسيح على أكمل وجه.

عاش سان فرنسيس حياة بسيطة ونقية مثل تعاليمه. كان أبوه تاجرا ثريا من آسيسى Assisi فى شمال إيطاليا، وكانت أمة سليلة أسرة من النبلاء الحضريين. وكان هو شابا فاسدا يقرأ الروايات الخيالية ويحلم بأن يكون لا نسلوت آخر. ولكنه حين حاول أن يصبح فارسا جرح وأهين. ومر بواحدة من تلك التحولات الكبرى التى مر بها مفكرون آخرون عظام فى المسيحية - مثل بولس، وأوغسطين، وأغناطيوس ليولا، ولوثر؛ إذ أنه أحس بأن رحمة الرب تتنزل عليه، وبدلا من الحب الدنيوى، صار أرقى أنواع الحب الدينى نبراسا لحياته. وعقد العزم على أن يعيش مثلما كان المسيح يعيش - متسولا معلما، مداويا، وصديقا لخلق الله، ومبشرا بأبسط الحقائق وأكثرها سموا. وأخذ يتجول بين مدن وقرى شمال إيطاليا يتقوت بالصدقات، بإيمان كامل بأن رحمة الرب سوف تشمله. وكان يتوجه إلى الفقراء والمرضى، بل والمجذومين الذين لم يكن يقترب منهم أحد سواه. وحاول أن يقود الأغنياء والأقوياء إلى حياة مسيحية خالصة، ولم تضعف من عزيمته تلك الاهانات التى كانت توجه إليه. وقد احتفل بأمجاد خلق الله فى قصيدة غنائية رائعة خاطب بها الشمس، كما كان يبشر الطيور التى اعتبرها أيضا أخوة له.

كان نموذج المبشر القديس الجوال قد صار مألوفا فى مدن شمال إيطاليا على مدى قرنين من الزمان، وقد لعب أمثال هؤلاء الرجال دورًا هامًا فى إذكاء الحركات الهرطقية فى القرن الثانى عشر. ولكن يبدو أن سان فرنسيس قد تفوق على هؤلاء القديسين بكمال حياته. فقد تأكد تحقيقه الكامل لحياة المسيح بظهور علامات تشبه

جروح المسيح Stigmata على حسب ماقيل آنذاك. وسرعان ماجمع من حوله الرجال والنساء، وأرسلهم عبر الطرق المتربة إلى إيطاليا ليحضروا الأناجيل المسيحية إلى العلمانيين كما كان هو نفسه يفعل. وكانت القواعد التى أرساها لأخوته الصغار مقولات عامة عن المبادىء، ولم تكن قانونا محددا لجماعة رهبانية. كان مطلب فرنسيس الأساسى من أتباعه أن يعيشوا مثل المسيح، ويبشروا به، ويواصلوا حجهم إلى مدينة الرب بإيمان كامل برحمته. وكان الاخوة الصغار «لا يأخذون شيئا للطريق»، وعليهم أن يكونوا فقراء بكل معنى الكلمة: فقراء فى الروح، والممتلكات، والوظائف والتعليم. فقد كان كل ما يحتاجون إليه هو مملكة الرب فى داخل الانسان. وكان على الرهبان، وفقا للقدوة المتمثلة فى كنيسة الحواريين ألا يتملكوا شيئا سواء بصفة فردية أو بصفة جماعية. وكان عليهم أن يعيشوا فى الكنائس المهجورة والكهوف أو فى أى مكان يستطيعون أن يجدوا فيه المأوى. كما أن العمل البدنى كان بقصد سد رمقهم، وإذا لم يكن هذا كافيا، فعليهم أن يتسولوا. ولم يكن لهم أن يحصلوا على أية امتيازات من البابا، كما لا يجوز لهم أن يرسموا أساقفة. كذلك كان عليهم ألا يسعوا إلى التعليم، لأنه شرك ولهو؛ إذ يكفى أن يعرفوا أنهم يجب أن يحبوا الرب ويخدموه.

هذه المثل كانت تحمل بعض وجوه الشبه الواضحة مع مواقف الهراطقة الوالدنسيين. وكان إنوسنت وغيره من الزعماء الكنيسيين فى البداية مهتمين جدا بمضامين تعاليم سان فرنسيس. ولم يكن هناك شيء أكثر من ذلك وكان هذا هو مصدر كل الفروق بين الطرفين؛ فالقديس فرنسيس لم يكن معاديا لسلطة الكنيسة، ولكنه كان راسخ الايمان بسلطة القساوسة وكفاية الطقوس الكنسية، كما أنه أخضع إخوته الصغار (الرهبان) لسلطة الكنيسة تماما. فقد قال فرنسيس لأتباعه أن القساوسة فقط هم الذين يمكنهم القيام بطقس التناول (الأفخورستيا) الذى يجعل الخلاص ممكنا. وقال أنه يؤمن فى القساوسة والطقوس بدرجة أنه يؤمن حتى بالطقوس التى يقوم بها قسيس سيء. وكان هذا نفيا قاطعا للهرطقة الدوناتية. ووافق أنوسنت على أن يواصل فرنسيس عمله كما وافق على تأسيس جماعته الصغيرة من الاخوة الصغار Friars Minor. وأدرك إنوسنت بذكائه أن سان فرنسيس كان يقدم الدعم الضرورى لمجهودات البابا فى سبيل استعادة هيبة البابوية وزعامتها. وكان للحركة الفرنسسكانية أن تشارك مشاركة فعالة فى توجيه المشاعر الدينية فى أوربا، وهو الأمر الذى لم يكن ممكنا أن يتم على أيدى المبعوثين البابويين أو محاكم التفتيش. ومع ذلك أدرك أنوسنت الذى كان رجلا يختلف عن

قديس أسيسى، مدى فائدة هذا العمل للكنيسة. لقد كانت الحركة الفرنسسكانية نقطة تجمع لأولئك الرجال العلمانيين الذين لم تعد تكفيهم هيراركية الكنيسة، ولكنهم لم يكونوا يريدون الانفصال عن الكنيسة ليتوهوا فى غياهب الهرطقة. وقد أتاحت تعاليم سان فرنسيس لأولئك الذين يمرون بتجربة شخصية عميقة أن يبقوا فى رحاب الكنيسة. وكان هذا هو أفضل عالم روحى ممكن، كما كان بمثابة إشباع كامل للشوق الدينى المتأجج فى القرن الثالث عشر. والحماسة الكبيرة التى لقيها سان فرنسيس وأتباعه، والتى هزت العلمانيين بعنف فى القرن الثالث عشر وجددت ارتباطهم بالكنيسة كما سببت الانتشار السريع للحركة الفرنسسكانية فى أوربا - هذه الحماسة لم تكن مجرد نتيجة للسلوك القديسى لأولئك الرجال الملائكيين. وإنما كانت نتيجة لأن الفرنسسكان كانوا قديسيين وكاثوليك فى آن معا. لقد كان سان فرنسيس إفرازا لنفسية الجماهير؛ إذ كان العلمانيون فى زمانه يريدون مثل هذا الرجل ويحتاجون إليه، وكان من حسن طالعهم أن يجدوا الرجل الذى يتناسب تماما مع مثلهم الأعلى.

وبعد إنوسنت الثالث صممت البابوية على استغلال الحركة الفرنسسكانية أكثر من قبل كوكيل عن قيادة الكنيسة، وذلك بتحويلها إلى جماعة ديرية على نسق الجماعة الدومينيكانية. وقد وافق سان فرنسيس على هذه التغيرات مرغما، وتمت معظم هذه التغيرات أثناء غيابه فى شرق المتوسط فى محاولة لتنصير المسلمين. وبعد موته أخذ بعض زعماء الجماعة الفرنسسكانية، بتشجيع من البابوية، يخرجون عن القواعد الأساسية التى أرساها. كذلك صار الفرنسسكان والدومنيكان قساوسة، وصارت لهم سلطة التجول فى الريف، وخلال المدن يسمعون الاعترافات، ويقومون بالطقوس الكنسية، مما أثار غضب قساوسة الأبرشيات ورجال الكنيسة فى الكاتدرائيات. وصار الأخوة الصغار Friars Minor يملكون الممتلكات الجماعية. كما برز العلماء الفرنسسكان مثل الدومينيكان بمؤلفاتهم فى الفلسفة والعلوم. ومع الربع الأخير من القرن الثالث عشر كان الأساتذة الفرنسسكان هم سادة أوكسفورد مثلما كان الدومينيكان زعماء باريس. وكان لا بد لهذه التغيرات من أن تفرز نزاعات حادة داخل الجماعة، ولكنها لم تقلل من الاخلاص والاحترام الذى حققه الفرنسسكان للكنيسة خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر على الأقل. ومن بين القرارات العديدة التى اتخذها إنوسنت الثالث لم يكن هناك قرار يضارع فى أهميته قراره بالسماح لفرنسيس الأسيسى بأن يرسل «أخوته الصغار» فى مدن أوربا وقراها.

الفصل العشرون

الوفاق الجديد وعيوبه

١ - كاتدرائية الفكر:

كانت بابوية انوسنت الثالث فاتحة لنصف قرن من السلام والإستقرار الواضح فى الحياة الأوربية. فلم تكن هناك حروب هامة منذ معركة بوفينيس سنة ١٢١٤ حتى تسعينيات القرن الثالث عشر. وكانت وفاته هى فصل الختام لفترة طويلة من النمو السكانى والاقتصادى ميزت الاقتصاد الأوربى منذ منتصف القرن العاشر. وواصل البابوات الذين خلفوا انوسنت الثالث العمل بسياسته الناجحة فى التعامل مع ملوك الغرب الأوربى. وكان حكام فرنسا وإنجلترا رجالا قديسين كانوا على وفاق مع البابوية، على حين تجدد الصراع بين البابوية والهوهنشتاوفن لينتهى بإنتصار كامل للكنيسة. كذلك كان نصف القرن الذى أعقب موت إنوسنت بمثابة فترة التوازن والوفاق فى الحياة الفكرية، فهى فترة حاول فيها مفكرو أوربا الغربية إستخلاص المضامين الكامنة فى روح القرن الثانى عشر الإبداعية، وكشف العلاقة بين الدين والعلم فى إطار الحقيقة الواحدة. وكانت البناءات الفكرية الطموح التى نتجت عن ذلك مصحوبة بوفاق جديد فى مجال الدين. ذلك أن الهجوم الذى شنته محاكم التفتيش على الهرطقة، بدعم ومساندة قوية من الحماسة التى لقيها الفرنسسكان، تمخض عن تدهور حاد فى تأثير حركة معاداة السلطة الكنسية التى كانت قد هزت النظام العالمى فى العصور الوسطى من أساسه فى نهاية القرن الثانى عشر. وما أن بزغت شمس سنة ١٢٠٠ حتى كانت الهرطقة الشعبية تافهة الأثر فى الحياة الأوربية. فقد نجح الفرنسسكان واتباعهم فى توجيه النزعة الدينية المكثفة التى ميزت كل طوائف المجتمع آنذاك، ولاسيا البورجوازيين، فى إتجاه يشرى الكنيسة الكاثوليكية. وتبقى بعض الإنجازات التى تمت فى مجال الفن والأدب فى العصور الوسطى دليلا على كيفية إستغلال حركة التدين الشعبى فى صالح الكنيسة.

إذ أن الطراز المعمارى الجديد الذى كان قد ظهر فى منتصف القرن الثانى عشر

فى جزيرة فرنسا وعرف فيما بعد باسم الطراز القوطى، مضى من نصر إلى نصر منذ بدايته التجريبية زمن سوجيه. وعلى مدى القرن التالى إنشغل كبار الأساقفة فى شمال فرنسا - شارتر، باريس، أورليانز، راميان، وسن Sens - فى منافسة حامية لتشييد الكاتدرائيات الهائلة على الطراز الجديد، بالبوابات الواسعة، والنوافذ العالية، والدعامات الشاهقة، والأقواس المدببة، والعقود المضلعة، والنوافذ الوردية، والواجهات التى تزينها التماثيل الرائعة. وقد استخدموا موارد أسقفياتهم الهائلة والعبقرية المعمارية فى أوربا لتشييد بنايات أكثر إرتفاعا، وانتهوا إلى تشييد بنايات على هيئة الصلبان بفضاء داخلى أوسع ومتصل غير منقسم بشكل لم يعرفه الناس فى الغرب قبل ذلك. وسرعان ما انتشر الطراز الفرنسى الجديد فى إنجلترا وألمانيا، بل ان تأثيره إمتد إلى فن العمارة الإيطالى، حيث كان الطراز الرومانسكى Romonesque قد نشأ أصلا. وعلى أية حال، فإن المنطقة المحيطة بباريس Ile-de-France هى التى شهدت أعظم إنجازات فن العمارة القوطى.

وكان السيد الاقطاعى، أو الفرد البورجوازى أو الفلاح الذى يدخل كنيسة نوتردام أو شارتر يقع تحت أقوى انطباع عن طبيعة السماء. فقد كانت تستخدم كل الفنون، كما كانت تحرك كل المشاعر لكى تتوجه بنظرة خاطفة صوب أمجاد الحياة السماوية التى تستعصى على الوصف. فقد كان الزجاج المصبوغ «يعكس النور الألهى» ويغرق إلى المذبح فى مزيج لا يحصى من الألوان الاعجازية. وكان المصلون يقفون بالآلاف لكى يشاهدوا ويسمعوا القداس العام فى جو تحيط به الضجة المرئية والموسيقى التى تناسب الكنيسة الامبراطورية، يتعجبون من الكيفية التى تم بها بناء حوائط الكنيسة الشاهقة. وكما كانت جوقة المرتلين فى الكنيسة تنغم الأصوات فى الترانيم والأناشيد، وبينما كان الأسقف أو مساعده يقف أمام المذبح فى مسوحه المذهب، وكما كان المسيح والعذراء والقديسون يتوهجون فى صورهم المرسومة بالفسيفساء الزجاجى فى نوافذ الكنيسة العليا، بحيث يبدون فى الظلمة المحيطة بهم وقوفا مجسدين، كان من السهل تصور جيش الملائكة وهو يقوم بدور الدعائم التى يرتفع فوقها بيت الرب.

هذه الآثار الرائعة للعقيدة باتت ممكنة بقدر هائل من التخطيط، والمال، والعمل. وكانت مهمة كبرى تلك التى يضطلع بها كل من يبنى كاتدرائية على الطراز القوطى؛ إذ كانت تتطلب جهود المئات من الرجال على مدى سنوات عديدة. والكاتدرائيات الفرنسية التى شيدت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر لم تشيدها

مجموعة قليلة العدد من القساوسة والعمال الأتقياء وهم يرتلون الترانيم للعذراء. وإنما شيدتها مجموعات من الحجارين الذين كان يجب أن ينالوا أجورا مرتفعة لقاء عملهم. ولم يكن الأسقف يقتصر على إستغلال دخله فقط، وإنما كان يأخذ مبالغ من الملوك والنبلاء، وسكان المدن. وقد أدى كبرياء سكان المدن إلى تدعيمهم لبناء الكاتدرائيات فى مدنهم، حتى وإن كانوا غارقين فى نزاع مرير مع الأساقفة حول حقوقهم الكوميونية. ولم يكن الأسقف يتحرك دائمًا بـإلهام من الدوافع السامية؛ إذ كانت الكاتدرائية هى الأثر الذى يجب أن يرتبط به، فلم يكن الأسقف يعير إهتمامه لمعاناة الفلاحين والمعدمين من سكان المدن، كما يبخل بإحسانه على الفقراء والمعوزين والمرضى، ولكنه كان هو نفسه الذى يشتهر بين معاصريه، وفى التاريخ، ببناء إحدى الكاتدرائيات. وحتى مع كل هذه الجهود، كان إتمام بناء أية كاتدرائية على الطراز القوطى فى مدى ثلاثين سنة يعتبر إنجازا طيبا. وفى بعض الأحوال كان البناء يستمر على مدى قرن أو أكثر. فقد كان من الممكن أن تبرز كافة أنواع العقبات، فقد يموت الأسقف الأصلى ولا يهتم خليفته كثيرًا بالبناء، وقد ينفد المال؛ كما كان من الممكن أن يقع المهندسون والبناءون فى مشكلات فنية. وتشييد كاتدرائية على الطراز القوطى عملية مكلفة حتى فى عصرنا الحالى، فضلا عن صعوبة ذلك - فقد تم بناء واحدة فى نيويورك فى مدة ستين سنة - ولم تكن فى القرن الثالث عشر أقل تكلفة وصعوبة. ففى ذلك الحين كان هناك حجارون جاهزون، وهو ما نفتقر إليه اليوم، ولكن أدوات البناء فى العصر الوسطى كانت بسيطة، كما كانت معرفة القرن الثالث عشر بالبناء محدودة.

كان المهندس الذى يعمل فى العمارة القوطية يضع مخططاته بنسب هندسية. ولم يكن يستطيع أن يحدد بالضبط قوة الضغط على أية نقطة فى حوائط المبنى الذى يبنيه، وكان عليه أن يخاطر كثيرا، دونما نتائج سعيدة فى كل الأحوال. وكلما كان طموح الأسقف الذى يستخدمه كبيرا، كلما كان عليه أن يأخذ فرصة أكبر، وكلما كان عليه أن يبنى بنيانا أكبر من بنايات القرن الثالث عشر، كلما كان عليه أن يزيد من تدعيم بنائه بالدعائم الشاهقة لضمان الأمن. وفى ظل هذه الظروف فلا عجب فى أن المهندسين المجيدين، الذين كانوا يبرزون من بين رؤساء البنائين، كانوا يحظون بتقدير كبير وينالون أجورا عالية. فقد كانوا صفوة حرفية صغيرة، وكان أكثرهم نجاحا يتلقى عروضا، ويعمل فى عدة أعمال فى وقت واحد.

ولم تكن مهمة المهندس المعمارى قاصرة على تخطيط وتنفيذ بناء الكاتدرائيات،

وإنما كان عليه أيضا أن يشرف على تزيينها. إذ كان هو المسئول عن توجيه الحرفيين، الذين كانت نوافذهم بزجاجها الملون، وتماثيلهم واطاراتهم، وزخرفتهم تعتبر ضرورة للكاتدرائية مثلما كانت الرسوم التوضيحية ضرورة لأى مخطوط جيد آنذاك. وفى الأركان الغامضة فى الكاتدرائية، أو فوق الحوائط الخارجية السامقة، كانت تفاصيل الزينة التى لا يراها الناظر من على الأرض. وفى بعض الأحيان كان يتاح للحرفيين أن يستخدموا خيالهم، فابتكروا كافة أنواع الشخوص الغريبة والشاذة التى تتوافق مع روح السخرية العامة أو الأساطير الشعبية، ولكن عمل الصور المقدسة iconography، أو أيقونات التماثيل، والزجاج الملون، كان يتم بدقة ويتم تصميمه بحيث يستوعب كل التفاصيل تحت اشراف المهندس. وفى بعض الأوقات كان الأسقف أو مقدم الدير الذى بدأ البناء يقدم اقتراحات محددة عن الموضوعات والرموز التى يريد تصويرها فى كنيسته، وفى أوقات أخرى كان العلماء العاملون فى خدمة الأسقف أو مقدم الدير يقدمون مشورتهم للمهندس. ومن المحتمل أن المهندسين المعماريين المتعلمين كانوا يقدمون العناصر الرئيسية (الموتيفات motifs) من لدنهم، ولكن من الواضح أيضا أن معظم الرمزية فى الفن القوطى لم تكن نتاجا للفكر الواعى، ولكنها كانت مجرد تحوير لتراث فن الأيقونات المسيحى الذى يمكن تتبع أصوله على مدى عدة قرون سابقة من خلال المخطوطات المصورة. وكان المهندسون المعماريون المثقلون دائمًا بضغط العمل، يستعيرون الأفكار من الكنائس القائمة بالفعل. وقد حفظ لنا الزمن كتاب الرسوم الخاص بمهندس معمارى فرنسى من القرن الثالث عشر اسمه فيلار الهونكورتى Villard de Honnecourt وهو يكشف عن أنه طاف بعدة كاتدرائيات، وعمل نسخا لكل عمل معمارى وأيقونى أعجبه.

وإذا لم تكن كل جوانب الفن نتاجا للفكر الواعى كما يعتقد بعض الكتاب المحدثين المتحمسين، فإن كاتدرئيات شمال فرنسا تبقى مع هذا رموزا دالة على الاتجاهات الفكرية التى سادت السنوات السبعين الأولى من القرن الثالث عشر. وإذا كانت النغمة المتكررة فى فكر القرن الثانى عشر هى الإبداعية والأصالة، فإن النغمة الدالة فى أوائل القرن الثالث عشر ومنتصفه كانت هى النظام والضبط. وكما كانت الكاتدرائية القوطية تمزج كل الموارد الفنية والهندسية فى القرن الثالث عشر لتبنى بيتا للروح القدس، حاول مفكرو تلك الفترة وكتابها أن يشيدوا كاتدرائية الفكر. ذلك أن التيارات غير المتجانسة، والمتضاربة أحيانا، التى سادت الحياة

الفكرية فى القرن الثانى عشر، خضعت لعملية فكرية منظمة، وتم توجيه التواءاتها وانعطافاتها المحيرة فى أطر ونماذج مباشرة، فضلا عن أنه تم تحديد الحدود الواضحة لأهدافها بدلا من تلك الغايات المفتوحة التى كانت تسير تجاهها. كان الفكر فى القرن الثالث عشر شبيها بالكاتدرائية القوطية بشكل أو بآخر: فقد كان البناء محكوما بصحن مركزى وجناح مفتوح يسمح للجميع بالرؤية، أى أنه كان فسيحا، متقنا، فخما، ولكنه يحوى أيضا بعض الحجرات الجانبية والكنائس الصغيرة المعتمة والأقل بهاء ورونقا، كما كان هناك ضغط على حوائط ذلك الصرح الفكرى الكبير الذى كان أحيانا يزعج المهندسين الذين شادوه.

كان لحضارة القرن الثالث عشر حافز يحث على جمع وتنظيم كافة أشكال المعرفة. فقد كان هناك شعور كامن بأنه إذا أمكن مجرد جمع كل المعارف المتاحة فى حقل معين فى نموذج منتظم داخل صفحات كتاب كبير، لانتهت جميع الشكوك والفوضى، ولشعر كل المتعلمين بالأمان والسعادة. وكان ذلك رد فعل طبيعى ضد الاتجاهات اللامركزية التى سادت ثقافة القرن الثانى عشر. وتكاتف الجهد المضنى والذكاء الراقى على انجاز مثل هذه الملخصات المنهاجية، وشاعت فى جميع المستويات والميادين فى عالم الفكر. فقد كانت هناك خلاصة Summa لكل اهتمام وكل ذوق؛ وأكثرها شمولا وعمقا، هو ذلك الكتاب العملاق «المرآة الكبرى Spe-culum Maius» الذى كتبه فنسان البوفيزى، الذى كان راهبا فرنسيا من الدومينيكان. وكان للاهوت والفلسفة والقانون، بكل أنواعه؛ مدنيا كان أم اقطاعيا، أو كنسيا أو عاما، جامعون يقومون بجمع مواده على أساس منهجى. كذلك كانت هناك كتب اساسية فى الكوزمولوجى[1]، تصف الكون على أساس نظريات

(١) الكوزمولوجى Cosmology علم من علوم العصور الوسطى يضرب بجذوره فى الكتابات الواردة فى الكتاب المقدس عن الخلق كما يفسره آباء الكنيسة المسيحية، وفى الفلسفة المسيحية، والعلوم الطبيعية، والدراسات العربية. وقد تبنى الغرب الوسيط انجازات الأغريق فى هذا المجال فيما كتبه بلينى الكبير فى التاريخ الطبيعى وكتابات أوغسطين. وعلى أية حال، فإن أهم مصادر الكوزمولوجى فى العصور الوسطى هى وجهة النظر الواردة فى الكتاب المقدس عن الخلق التى تؤكد على خلق الكون من العدم وفقًا لمشيئة الرب. ووفقًا لما يقوله علم الكوزمولوجى فى العصور الوسطى فليس هناك ترتيب منطقى للعناصر الكونية، وإنما يجب أن نتقبلها كما هى وفهم النظام الكونى يتأتى من خلال الدين والمعرفة الألهية. وكان هذا مذهب الكنيسة الرسمى الذى صاغه القديس أوغسطين. وفى ١٢١٥ أصدر مجمع اللاتيران الرابع قرارا بأن يكون هذا هو الشكل القانونى لعلم الكون (الكوزمولوجى) فى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وقد ساند =

بطليموس، وأرسطو، والعلماء العرب، وكانت هذه الكتب جميعا تقدم معلومات مختلفة عن الكون الذى مركزه الأرض بشكل يتفق مع ما جاء بسفر التكوين، ومركز الإنسان كمحور لما خلقه الله من كائنات. وبالنسبة لمن هم أقل تعليما، كانت هذه موسوعات تضم جميع أنواع المعارف، وقد كتبت بعضها باللغات المحلية، ولقيت ترحيبا وحماسة من النبلاء ذوى الميول الثقافية وسكان المدن الذين يحاولون تحسين أنفسهم. وكانت مجموعات القصص الأخلاقية التى تجرى على ألسنة الحيوانات تلقى رواجا كبيرا، على الأقل لأنها كانت تصف وتصور حيوانات لم يرها أنسان من قبل.

وكان ولع القرن الثالث عشر بجمع كل المعارف فى ملخصات منهجية وموسوعات مصحوبا بادماج كل نشاط فكرى هام فى اطار الحياة داخل المؤسسات الأكاديمية. ولم يحدث قبل القرن العشرين أن تحكمت جامعات الغرب الأوربى فى الحياة والفكر على هذا النحو، بل أن الأكاديميين كانوا يحتكرون هذا التأثير فى القرن الثالث عشر بشكل أكبر مما هو عليه الآن. لقد كان الفكر فى القرن الثالث عشر مدرسيا Scholastic، أى أكاديميا. فقد كان كل الكتاب المرموقين فى اللاهوت، والفلسفة، والقانون والعلوم «مدرسين»، بمعنى أنهم كانوا أساتذة فى المدارس، أى الجامعات، كما أنهم كرسوا أنفسهم لتسخير المنهج الجدلى فى الاستدلال العقلى، وهو الأمر الذى كان قد بات شائعا فى القرن الثانى عشر. وكان الوسط التنظيمى الذى عملوا فى رحابه يحكم نظرتهم بطرق أخرى بالضرورة. لقد كانت تلك بيئة تضج بالجدية والمنافسة، والالتزام، وهى بيئة ربما كانت أفضل لتهذيب المذاهب السائدة منها لترك النماذج المقبولة وفتح خطوط جديدة للفكر. لقد كان الاساتذة والطلاب فى العصور الوسطى يصورون أحيانا فى صورة شخصيات بشوشة صافية؛ ولم تكن تلك هى الحال بصفة عامة. وقد يكون من الأصح أن نصورهم فى صورة نماذج بائسة، مقهورة، وعدوانية.

= توماس أكويناس هذا الرأى بمجادلاته الفلسفية. ومن ناحية أخرى، فإنه منذ القرن الثالث عشر، وبتأثير العلوم العربية، طور الفلكيون رأيين مختلفين بشأن الكون، أحدهما أطلق عليه توماس كانتمبرى Thomas of Cantimpre الكوزمولوجى الأرسطى، وهو يقوم على ملاحظة الظواهر الطبيعية، وهو الذى طوره روجر بيكون. وقد ظلت هذه المذاهب والأراء قائمة حتى قيام نظريات كوبكرنيكوس خلال عصر النهضة.

A.D. Sertillanges, L'Id`ee de la creation et ses retentissements en Philosophie (1945).

(المترجم)

كانت الجامعة فى العصور الوسطى، وهى التى تطورت عن المدارس الكاتدرائية الفرنسية والمدارس البلدية الايطالية فى القرن الثانى عشر، مساهمة مميزة وأصيلة فى عملية تنظيم التعليم العالى. وكانت منظمة على أساس تدريس فروع عديدة من المعرفة لعدد كبير من الطلاب بطريقة منهجية ورخيصة بقدر الامكان، وبهذا كانت أرقى من مدارس البلاغة واكاديمياتها التى عرفها العالم القديم. لقد قام نظام جامعات العصور الوسطى على أساس التحاق الطلاب بها والدراسة من خلال برامج محددة ثم اعطائهم درجات تشهد لهم بالحد الأدنى من الكفاءة؛ وما تزال هذه هى الفكرة الأساسية للجامعة فى الحضارة الغربية. كذلك طورت الجامعة فى العصور الوسطى منهجًا جديدًا للتعليم يتضمن المحاضرات واستخدام الكتب الأساسية، وما يزال هذا ساريا بشكل أساسى حتى اليوم، بغض النظر عن صلاحيته أو سوئه. لقد كانت المحاضرة فى العصور الوسطى «قراءة»؛ إذ كان الأستاذ يقرأ فقرة من نص، مثل قوانين جستنيان، أو الكتاب المقدس، أو أحد مؤلفات أرسطو، ويطور تفسيره بوضع هوامش على النص. وبما أن الكتب لم تكن ميسورة سوى فى شكل مخطوطات، فإنها كانت مكلفة إلى حد كبير، وكان الطلاب الأثرياء فقط هم الذين يستطيعون شراء نسخ الكتاب المقرر. وقد يشترك ثلاثة من الطلاب أو أربعة فى شراء كتاب ويدونون الهوامش التى يمليها الأستاذ على النص. وكانت المناقشة بين الطلاب والأساتذة قليلة أو معدومة. وكان الحوار السقراطى الوحيد فى جامعات العصور الوسطى يدور بين الأساتذة فقط؛ لأنهم كانوا يقومون بين الحين والحين بالتنافس على إعطاء محاضراتهم على نفس النص، وبذلك ينخرطون فى مناقشات عامة واسعة حول الموضوعات محل الخلاف.

لقد نظمت الجامعات على أساس أنها نقابات خاصة لصناعة الرجال المتعلمين. وفى شمال الألب كان المدرسون يتصرفون مثل المعلمين فى أية نقابة أخرى، إذ كانوا يقررون المدى والوقت الذى كان على الطالب أن يمضيه كتلميذ ودارس ماهر، كما أنهم وضعوا الشروط التى تخول له حتى الدخول فى زمرة الأساتذة والحصول على آخر درجاته العلمية. وجميع هذه الدرجات، سواء كان الطالب يحصل بعدها على لقب معلم أو دكتور، كانت من الناحية الفنية ترخيصا له بالتدريس، على الرغم من أن معظم خريجى الجامعات لم يعملوا بالتدريس. وكانت تلك شهادات بالكفاءة ومدى المهارة اللازمة فى الحرفة التى تحترفها النقابة. وكانت المستويات الفكرية ومدى الدراسة التى ينبغى على الطالب انجازها قاسية. ففى مدارس

ايطاليا، التى تخصصت فى القانون المدنى فى الشمال، وفى الطب فى الجنوب، كانت النقابة فى أيدى الطلبة، أو طلاب شهادة البكالوريوس الذين كانوا يستأجرون المدرسين، ويقررون القواعد التى تتطلب من المحاضرين أن ينتهوا من التعليق على النصوص المقررة قبل نهاية الفصل الدراسى. كان هذا هو الموقف البورجوازى تجاه التعليم. وكانت الامتحانات فى جامعات العصور الوسطى تتم شفويا؛ وكانت شاملة وصعبة.

أما نقابات الأساتذة فى الشمال فكانت تحصل على الترخيص من الأسقف الذى يقومون بالتدريس فى مدينته. ومن آن لآخر كان الأسقف يتدخل فى شئون الجامعة إذا كان مهتما بالمدلولات المذهبية لما يقوله أو يكتبه أحد الأساتذة. كذلك كانت البابوية والملوك يشرفون على الجامعات. ونتيجة لهذا، كان يحدث أن يمنع الأساتذة من التدريس وتدان آراؤهم ومذاهبهم بين فترة وأخرى. ولكن ما يجذب الإنتباه هو درجة الحرية الكبيرة التى كان الأستاذ فى القرن الثالث عشر يتمتع بها، حتى فى مجال اللاهوت والفلسفة. وكان النظام الذى يخضع له الأستاذ ويسمح بالسيطرة عليه مسألة محصورة فى نطاق الجامعة. إذ كان زملاؤه ينافسونه دوما بغية الوصول إلى التميز الفكرى، وأفضل مراكز الأستاذية، فضلا عن إخلاص الطلبة والرسوم التى كانوا يدفعونها أحيانا. وكان أى شذوذ أو فكر ثورى يجد تحديا قويا. كما أن كثيرين من الأساتذة كانوا أعضاء فى منظمات رهبانية، لا سيما من الدومينيكان والفرنسسكان، مما كان يؤدى إلى المزيد من التحكم فى أعمالهم.

وانها لخرافة تلك التى تقول إن غالبية طلاب الجامعات فى العصور الوسطى كانوا متحمسين ويريدون أن يصبحوا من علماء اللاهوت. فالواقع أن نسبة الطلاب الذين كانوا يدرسون اللاهوت بين طلاب جامعات القرن الثالث عشر لم تكن تزيد عن النسبة الموجودة اليوم. فقد كانت أكثر كلية محببة فى أوساط الطلاب هى كلية الحقوق، وما تزال هذه الكلية تجتذب اليوم عددا كبيرا ولنفس الأسباب. فقد كانت هى الطريق إلى الوظائف الكبرى فى الكنيسة والدولة. ومن ناحية أخرى، كانت دراسة اللاهوت، على الرغم من إحتمال أنها كانت مبجلة كملكة بين بين العلوم، دراسة طويلة وصعبة، ولا تتيح سوى القليل من فرص التوظف بعد الحصول على الدرجة. وكانت حياة الطالب فى العصور الوسطى صعبة على الدوام، وبائسة إلى أبعد الحدود. فقد كان معظم الطلبة أبناء لأسر الفرسان الصغار، الذين لم يكن بمقدورهم أن يقدموا لأبنائهم سوى القليل عن طريق الارث، أو من سكان المدن

الذين كانت الجامعات بالنسبة لهم سبيلا للهروب من طبقتهم والدخول فى خدمة الكنيسة أو الدولة. وقد ساءت ظروف الطلاب بما فيها من إحباط بسبب الأسعار الملتهبة، وعدم كفاية الطعام، وتوفر المسكن فى المدن التى توجد بها الجامعات مثل باريس وأوكسفورد. كذلك كانت المشاجرات التى تنشب بين آونة وأخرى بين سكان المدن والطلاب، بل وحوادث الشغب الواسعة النطاق، نتيجة طبيعية لهذا. وكان المفروض أن يقوم الملك والأسقف بحماية الطلاب من الإستغلال. ولكن هذا لم يكن يتحقق على الصعيد الواقعى. وقد تأسست جامعة كمبردج فى مطلع القرن الثالث عشر على أيدى الأساتذة والطلبة الذين تركوا أوكسفورد تأففا بعد شغب عنيف جدا إندلع بين الطلبة وأهل المدينة. وفى غضون القرن الثالث عشر بدأ بعض المحسنين الأغنياء، ومنهم روبير السوربونى Robert de Sorbon فى باريس، يشيدون بيوتا جماعية أو كليات Colleges للطلاب. وفى أوكسفورد صارت الكلية أكثر أهمية فى الحياة التعليمية فى الجامعة. وكان من المتبع أيضا فى باريس تقسيم الطلاب إلى «أوطان» معينة وفقا للإقليم الذى نزح منه كل فريق منهم. كان الطالب يجد دراسته طويلة وصعبة، وتكاليف المعيشة مرتفعة، والنظام الذى يخضع له صارما. فلا غرابة فى أنه كان يجد لتعاسته متنفسا فى معاقرة الخمر، والمقامرة، فضلا عن مشاجرات الشوارع بين الحين والآخر. ولا غرابة أيضا فى أن بعضًا من ألمع مفكرى الحياة الجامعية فى القرنين الثالث والرابع عشر كانوا رجالا مشاغبين ذوى شخصيات مضطربة إلى حد ما.

كانت كلية الآداب تقدم الدراسات الأساسية فى جامعات العصور الوسطى، وهى الدراسات التى كان الطلاب يمضون بعدها بالسرعة الممكنة إلى دراستهم المتقدمة فى القانون، أو اللاهوت، أو الطب. وعلى العموم لم يكن الأساتذة فى كلية الآداب هم أفضل مفكرى جامعات العصور الوسطى. إذ كان تناولهم للكلاسيكيات يفتقر تماما إلى القيم الإنسانية التى وجدها حنا السالزبورى فى الفنون الحرة. فقد كان حنا يخشى ألا تسود النزعة الإنسانية فى ظل الجو الجدلى المسيطر على الجامعة، وقد أثبتت التطورات التالية لدراسة الآداب الحرة صدق حدسه. إذ كان المدرسون فى القرن الثالث عشر ينشدون الحقيقة، ولكنهم لم يكونوا يقدرون الآداب العظمى سواء من حيث خصائصها الجمالية، أو من حيث كونها معلما للأخلاقيات. فقد كان المدرسون فى كلية الآداب يتناولون الكلاسيكيات بطريقة تحليلية للغاية؛ كما كانت نظرتهم للنصوص القديمة تقوم على أنها مصدر للمعرفة ينبغى أن يخضع للجدل. وكان

من الـواجب تشريـح البناء اللغـوى والمجازى، ثم تنـاولها بـطريقة منهجيـة. ولكن مـدخلهم النفعى المحـدود لم يتـرك مجـالا لـلأفكـار أو القيم التى يحملهـا التـراث الكلاسيكى على حد سواء. وكان العالم القديم لا يعنى شيئا بالنسبة لهم فقـد كانـوا مدركين فى قرارة أنفسهم أنهم منفصلون عنه. كان الفكر فى القرن الثالث عشـر فى أضعف مـواقفه بسبب عـدائه للنـزعة الإنسـانية، وعـلى المدى الـطويل قيض لهـذا الفشل أن يكونَ ذا أهمية فائقة فى ثقافة العصور الوسطى المتأخرة. وكـانت حركـة الحفاظ على التراث الكلاسيكى، وهى المهمـة التى اضطلعت بهـا المدارس الكنسيـة منذ القرن السادس، تجرى خارج الجامعة مرتبطة بالتـراث الأدبى الرومـانسى. فقد كان الشعراء الإيطاليون فى أخريات القرن الثالث عشر ومطلع القرن الرابـع عشر هم أصحـاب الفضـل فى إحيـاء القيم الإنسـانيـة، وكـانـوا هم حقـا خلفـاء حنـا السالزبورى. وكانت عداوة الإنسانيين فى عصر النهضة تجاه الجـامعات، عـلى الرغم من أن معـظمهم كانـوا من خريجى الجـامعات، نتيجـة معارضـة الجامعيـين للتـراث الإنسانى فى القرن الثالث عشر.

كـان المـدرسيـون يعتقـدون أن منهجهم الجـدلى وحصيلتهم الكبيـرة من التعليم المسيحى واليـونانى تؤهلهم لحـل جميع المشكـلات. فهم على سبيـل المثـال، كـانـوا يكرسون وقتا كبيرا ومناقشات طائلة حول مـا إذا كان الـربا يتـوافق مع العقيـدة المسيحية، وحول ماهية «السعـر العادل» الـذى ينبغى أن تسمح السلطات الكنسية للتاجر بأخذه. وبينما استنتج المدرسون أن هنـاك قيودا أخـلاقية عـلى المشروعـات الرأسمالية، فإنهم مع هذا كانوا يسمحـون لأصحاب المشـروعات بعـائد مـربح من استثماراتهم وأموالهم. وعلى صعيد الممارسة الفعلية كانت القيود المدرسية على الفائدة أو المكسب تلقى التجاهل والإحتقار من التجار والمصرفيين.

وكان المطلب الخاص الذى كان المجتمع، والكنيسة على نحـو خاص، يـطلبه من المدرسين، يقع فى مجالات المنطق، والميتافيزيقا، والمعرفة، واللاهوت. فـالمشكلات التى كانت قد طرحت جانبا من القرن الثـانى عشر والتى صـارت أكثر إلحـاحا وضغـطا نتيجة لإستيعاب العلم الأرسطى، والتعليقات والإضـافات العـربية عليـه، كانت هى المشكلات التى تمرست فيها تماما المهارة الجدلية والقدرة العقلية الفائقة التى تميـز بها المـدرسيون فى القـرن الثالث عشـر. وبمنتصف القرن كـانت هناك فـوضى شديـدة وتضارب بين الفلاسفة واللاهوتيين لأن النظم العقلية المتنافسة والمتضاربة كانت تقف فى وجـه بعضهـا البعض. وكـان مـا يـزال هنـاك أولئـك الـذين يؤيـدون الفلسفـة الأوغسطينية القديمة ومذهب الأفلاطـونية المحـدثة، إلى جـانب من يؤيدون المـوقف

الواقعى القوى. وكان هناك أحد أساتذة كلية الأدب فى باريس، وهو سيجيه البرابنتى Siger of Brabant الذى كان يناصر مذهب ابن رشد بعقلانيته الصارمة، وإنكاره للخلق من العدم وفردية الروح بشكل يتعارض تمامًا مع المفاهيم الدينية المسيحية. وكان هناك راهب دومينيكانى ألمانى فى باريس، اسمه البرتوس ماجنوس Albertus Magnus، يحاول أن يبنى موقفا مسيحيا أرسطيا ولكنه لم يحرز نجاحا كبيرا.

وعند هذه النقطة، بدأ دومينيكانى آخر فى باريس، هو توماس اكويناس[٢] Thomas Aquinas (١٢٢٥ - ١٢٧٢) يبنى نظامه الخاص. وكان عمله الذى أكمله فى القرن الثالث عشر وأجمله فى كتاب «خلاصة اللاهوت Summa Theologica» نقطة تحول فى الفكر فى القرن الثالث عشر، فقد كان طفرة بالغة الأهمية. ولكنه كان محيرا ومشوشا بقدر ما كان يرضى المثل العليا للمعاصرين. وليس هناك ما هو أبعد عن حقيقة ثقافة القرن الثالث عشر من أن نتصور أن الفلسفة التوماسية لقيت ترحيب الجميع باعتبارها الحل لمشكلات الكنيسة الفكرية. وربما تعتبر الكاثوليكية الحديثة أن الفلسفة التوماسية كانت هى الفلسفة الرسمية للكنيسة، ولكن هذا بعيد جدًا عن الموقف الذى كان سائدًا فى أيام سان توماس وعلى مدى القرنين التاليين. إذ كان الكثيرون يعتبرون أن توماس مفكر ثورى، فلسفى ومغرض إلى حد كبير. ولكن أهمية عمله كانت محل الإعتراف منذ البداية حتى من جانب أولئك الذين إنتقدوها. لأنه كان قد أوجد نظاما مضبوطا، هائلا ومركبا، وحاذقا، مزج ما بين العلم الأرسطى والدين المسيحى بأكبر قدر ممكن من الكمال. وبقى السؤال مطروحا، على أية حال عما إذا كان هذا النظام يصلح فلسفيا أم أنه يلقى القبول من الناحية اللاهوتية.

ولم ينزعج أكويناس. ولم يعكر النقد الذى وجه إليه داخل جامعته أو خارجها صفوه المعتاد. ذلك أنه لم يواجه الهجوم من جانب بعض زملائه فقط، وإنما أيضا من جانب أسقف باريس ومن جانب أبرز فيلسوف دومينيكانى فى أوكسفورد. ولكن توماس إستمر فى تعاليمه وكتاباته، وأخذ يضيف رويدا رويدا إلى بنيانه العقلى الذى

---

(٢) يرد ذكره فى بعض المؤلفات والترجمات العربية باسم توما الاكوينى، ولكننا نرى أن من الأفضل دائما أن يكتب الاسم كما ينطقه أبناء اللغة الأصلية.

(المترجم)

قال مؤرخ الفن أيروين بانوفسكى Eruin Panofsky انه يكشف عن كل خصائص الكاتدرائية القوطية. ولم يكن عبثا أن أكويناس صار يعرف باسم «الدكتور الملائكى». فشخصية توماس اكويناس، التى تتميز بالثقة فى النفس، والصفاء، والإعتدال فى النقاش، غالبا ما كانت تعتبر الشخصية النمطية لأستاذ الجامعة فى العصور الوسطى؛ ولكن هذه الخصال هى التى جعلت منه الاستثناء الكبير بين الأساتذة. فمن ناحية كان تفوقه العقلى سببا فى صفائه، ولكن يجب أن نعزى هذه الصفة أيضا إلى سمنته الشهيرة وإلى خلفيته الطبقية أولا وأخيرا. فقد كان توماس سليل عائلة ارستقراطية من نابولى، وكان يرتكز فى عمله الفكرى على ثقة وطيدة بالنفس نابعة من كرامة المحتد.

ويمكن القول بأن فلسفة توماس أكويناس المسيحية قد تأسست على تناقض؛ فقد حاول أن يتوصل إلى معظم نتائج أوغسطين وما قالت به الفلسفة الأفلاطونية المحدثة باستخدام أكبر قدر ممكن من علم ابن رشد ومنطقه. وكانت تلك مهمة جسورة تحف بها المخاطر، ولا غرو أنه حير معاصريه ودوخهم بجسارته وبإنجازه لهذه المهمة فى كتاب منهجى ضخم. ويقوم الفرض الأساسى لتوماس على أن الفلسفة الأرسطية لا ينبغى أن تؤدى بالضرورة إلى الإستنتاجات التى إستقاها ابن رشد «الشارح» من أقوال أرسطو «الفيلسوف». وعلى الرغم من أن ناقديه قد اتهموه، دون وجه حق، بأنه إقترب من الفلسفة الرشدية لأنه يستخدم العلم الأرسطى أساسا لفلسفته، فإنه كان يريد أن ينفى إزدواج الحقيقة التى قال بها المفكر العربى العظيم[٣]. فلم تكن هناك حقيقة فى العلم وحقيقة أخرى فى الدين؛ إذ كان من الممكن البرهنة على المذاهب الأساسية فى المسيحية بالمنطق العقلى.

---

(٣) ينسب الرشديون اللاتين، وهم علماء أوربا الذين تأثروا بفلسفة ابن رشد، إلى هذا الفيلسوف العربى أنه قال بالحقيقة المزدوجة أو الحقيقة ذات الوجهين، بمعنى أن ما هو صادق فى مجال الدين قد يكون خاطئا فى مجال الفلسفة. وعلى أساس هذا الاعتقاد نشبت الخلافات حول موقف ابن رشد. انظر. R.R., «Arabian Philosophy», in Ency. Brit., II, 195.

وعن تلخيص موقف هؤلاء أنظر: محمد عاطف العراقى، النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد، ص ٢٨٧ – ص ٢٩١. ويرى الدكتور محمد عاطف العراقى أنه «من الخطأ الظن بأن ابن رشد قد تكلم عن العلاقة بين العقل والشرع حاصرا نفسه فى دائرة الشرع، أو واضعا فكره فى قوالب جدلية، بل معلنا لمبادىء عقلية برهانية يؤمن بها هو. وعلى هذا تكون نظرية التوفيق هذه نظرية تساوق مبادىء العقل مساوقة تامة». (المترجم)

وكانت معرفته الأرسطية هى التى أتاحت له أن يتوصل إلى هذا الاستنتاج. ويقوم نظامه العقلى كله على مبدأ أن معرفتنا لاتأتى من المشاركة المنيرة للعقل فى الأفكار الألهية والخاصة، كما تقول الفلسفة الأوغسطينية، وانما تبنى أساسا من التجربة الشعورية. وبوصفه مفكرا أرسطيا، فإنه لم يكن يستطيع تقبل النظرية الأفلاطونية عن الأشكال؛ لأنها لم تكن نظرية علمية فى رأيه، وأية فلسفة مسيحية تقوم على هذه المعرفة الزائفة لابد وأن تفشل كما فشل الواقعيون فى القرن الثانى عشر فى مواجهة الهجوم الرمزى. وعلى أية حال، فإذا كان أصل المعرفة الإنسانية فى الحواس، فإن الأبنية الفكرية سوف تقوم على أساس سليم، ويمكننا بذلك أن نمضى بالعقل لكى نتأمل طبيعة الحقيقة. وهكذا يصل اكويناس إلى الاستنتاج الذى يمكن أن نصفه بأنه «واقعية معتدلة moderate realism» ولكنه يتوصل إلى هذه الواقعية المعتدلة من نقطة انطلاق أرسطية لا أفلاطونية. وقد اعترف أن هناك مناطق نهائية فى العقيدة المسيحية لا يستطيع العقل أن يتوغل فيها؛ فمن المستحيل البرهنة على معجزة تجسد المسيح أو الثالوث. ولكن يمكن البرهنة العقلية على وجود الله ووجود الكثير مما ينسب إليه. وقد طرح اكويناس خمسة براهين على وجود الله؛ وتقوم على أساس من الجدل الارسطى عن وجود العلة الأولى. ولا يمكن أن تكون هناك لانهائية فى السببية؛ وإنما لأبد أن يكون هناك محرك أصلى ثابت، هو الذى قال عنه أكويناس أنه الله. ويمضى فى الجدل بحيث يتعرض لكثير من الشكوك حول هذا الموضوع لكى يصل إلى الله باعتباره كاملا، عليما، قادرًا على كل شىء، وحرا. وعلى نفس المنوال يمضى اكويناس من السببية الأرسطية من خلال الجدل المنطقى لكى يبرهن على الخلق من العدم، ومن علم النفس الأرسطى يمضى إلى الروح الإنسانية، ومن الأخلاق الأرسطية يمضى إلى الفضيلة المسيحية.

كان اكويناس يعتقد أنه اقترب جدا من المبادى النهائية لتعاليم أوغسطين. وقد توصل إلى ذلك عبر طريق جديد؛ وهو طريق الأفلاطونية التى أحلها محل العلم الأرسطى. وينقسم نقاد الفلسفة التوماسية إلى طائفتين: الرشديون، وغيرهم ممن يدرسون أرسطو وزعموا أن توماس أساء استغلال مؤلفات الفيلسوف وأنه أنحرف بالسببية الأرسطية والمنطق الأرسطى. وقد أنكر أولئك الذين يأخذون بالمذهب الأفلاطونى الجديد والفلسفة الأوغسطينية - أنكروا أنه توصل إلى الألوهية الأوغسطينية على الأطلاق. وأنما زعموا أن توماس قد زل فى القدرية الأرسطية. وقالوا أن الألوهية عند توماس ميكانيكية آلية وليست قادرة وحرة - فالرب إله

وليس المسيح. كما أدعوا أن الكون الذى نظمته التوماسية يقوم على أساس رفض أوغسطين فى سبيل أرسطو. كما زعموا أن توماس قضى على التفرقة بين وجهة النظر العالمية الأغريقية ووجهة النظر العالمية المسيحية، وهى التفرقة التى كان أوغسطين قد أرسى دعائمها. فقد كان أوغسطين قد أكد على تفوق الإرادة على العقل؛ ولكن توماس حقق عالمه المنظم بأن أخضع الإرادة لتفوق العقل.

وكانت آخر الانتقادات التى وجهت إلى التوماسية هى تلك التى وجهها الفلاسفة الفرنسسكان، الذين كانوا قد بدأوا يسيطرون على كلية اللاهوت فى اوكسفورد عند موت أكويناس. فقد كان معاصرا لتوماس الفيلسوف الايطالى بونافنتيرBonaventural (١٢٢١ - ١٢٧٤)، الذى كان هو أيضا رئيس جماعة الأخوة الصغار (الفرنسسكان). وقد نشر مقالة كبيرة أعادت تأكيد الموقف الأفلاطونى - الأوغسطينى فى مواجهة الفلسفة الأرسطية الجديدة. وفى نظام بونافنتيرا ترتبط النظرية الأفلاطونية الواقعية، التى تقول بأن الكليات هى التى توجد المادة، ارتباطا قويا بلاهوت أوغسطينى يتسق مع رؤية أتباع سان فرنسيس. فتفوق الحب، والأرادة على العقل عاد ليتأكد من جديد، كما تأكدت جلالة الرب ورحمته فى مواجهة الألوهية الآلية عند أرسطو.

كانت محاولة بونافنتيرا لطرح صياغة فلسفية للمثال الفرنسكانى تعبيرا عن تيار كبير معاد للفكر فى القرن الثالث عشر، وهو تيار لم يَقُمْ على التمسك بهدوئه طويلا فى مواجهة مضامين ومدلولات الفلسفة التوماسية. فقد أعادت الفرسسكانية إلى رحاب الكنيسة تيار التدين الذى كان قد فاض خارج الضفاف الكنسية فى القرن الثانى عشر مهددا بتدمير تفوق وسيادة السلطة الكنسية. ولكن إذا كان التدين قد اعترف مرة أخرى بسلطة الكنيسة، فإنه مع هذا كان ما يزال يحمل مفهوما محددا للغاية عن الرب، ولم يكن هو ذلك المفهوم الذى ظهر فى كتاب خلاصة اللاهوت Summa Theolgia. وحتى عندما كتب توماس ترنيمة عن جسد المسيح Corpus Christi. كانت احتفالات من النمط القديم «بالأب الدائم، والابن الذى يحكم فى العلياء مع الروح القدس التى تنبثق من كليهما بشكل أبدى وخالد». وكانت روح الترنيمتين الفرنسسكانيتين الكبيرتين فى القرن الثالث عشر، واللتين نظم أولهما جاكوبون داتودى Jacopone da Todi بعنوان Sabat Mater، ونظم الثانية توماس سيلانو Thomas Celano بعنوان Dies Irae، تختلف عن روح ترنيمة توماس أكويناس اختلافا كبيرا. إذ أن هاتين الترنيمتين توضحان سويا

الموضوعين التوأمين فى وجهة النظر الفرنسسكانية العالمية؛ أى الحب الدينى وجلالة الرب:

أنت أيتها الأم، يانبع الحب
المسى روحى فى عليائك
واجعلى قلبى يتوافق معك!
اجعلينى أشعر بما كنت تشعرين
واجعلى روحى تحلق وتذوب
فى حب المسيح سيدى.

* * *

لقد رحت أيها الرب، ونحن نخافك بحيث أننا
نحتمى منك بك
وبجناحى حمامتك أنت
نطير إلى رحاب الحب

فى منتصف القرن الثالث عشر اتضح تماما تأثير الحركة الفرنسسكانية من خلال الشعبية الهائلة التى كان يتمتع بها مذهب ذلك الرجل الفقير القادم من آسيسى (فرنسيس)، كما تصفه الحكايات المعروفة باسم «الزهور الصغيرة» وهى حكايات تتخذ طابع السيرة والأسطورة معا، وقد ذاعت عقب موت فرنسيس مباشرة، وفى قوالب كثيرة مختلفة. كذلك تكشفت أهمية الحركة الفرنسسكانية من خلال المفكرين اللامعين الذين اجتذبتهم، على الرغم من أن سان فرنسيس نفسه كان يعارض التعليم على اعتبار أنه غواية خطيرة. وبحلول سنة ١٢٧٠ كانت الحياة الفكرية فى أوربا، التى ظهر فيها صرح التوماسية شامخا للغاية، قد بدأت تشهد بروز مجموعة من الفلاسفة الفرنسسكان الذين كانوا قد بدأوا يصوغون معارضتهم لما يقوم به الدومينيكان من خلط بين العلم والدين. وبعبارة أخرى، كان ثمة انقسام خطير قد بدأ يحدث فى عالم الفكر المنهجى فى القرن الثالث عشر.

وتبدو البداية الغامضة للعلم الحديث وكأنها فرخ من أفراخ الفكر الفرنسسكانى فى القرن الثالث عشر. ويبدو الموضوع أكثر غموضا بسبب افتقارنا إلى إجماع الآراء حول طبيعة العلم الحديث الأساسية. فهل يمكن تعريف العلم بأنه ملاحظة

طبيعية؟ هذا تعريف غامض للغاية يعجز عن تمييز العامل الجديد الذى يفصل العلم الحديث عن العلم القديم. فهل هو الخاصية الكمية للطبيعة، أى التعبير عن الظواهر الطبيعية فى مصطلحات رياضية؟ يبدو هذا تعريفا جيدا، لولا حقيقة أن الرياضيات لا تصدق على الطبيعة فى بعض الأحيان؛ ذلك أن الرياضيات تحدد العلاقات التى لا توجد فى الطبيعة دائما. وقد يمكن للانسان أن يعرف العلم الحديث من خلال المنهج التجريبى. وهناك، على أية حال، بعض الغموض حول طبيعة المنهج التجريبى على الرغم من أنه يمكن القول بأنه يتعلق بالمنطق الاستقرائى إلى حد ما.

وأيا كان التعريف الذى نعتبره تعريفا صحيحا لطبيعة العلم، فإن مؤلفات أسقف لنكولن روبرت جروستست Robert Grosseteste (١١٧٥ - ١٢٥٣ م)، وحامى الفرنسسكان الأنجليز، ومؤلفات الراهب روجر بيكون Roger Bacon (ت. ١٢٩٢) يمكن أن ينسحب عليها هذا التعريف ففى كلتى الحالين كان ثمة مكسب للمعرفة الجديدة من خلال الملاحظة فى ميادين البصريات والفلك، حيث كانت المعدات المطلوبة قليلة مع قدر ضئيل من فهم المنهج الاستقرائى والمنهج الاستنباطى. فقد أكد جروستست على الحاجة إلى التعبير عن الظواهر الطبيعية فى ضوء النسب الرياضية. وقد فتحت العلوم الرياضية العربية التى غزت أوربا أبواب البعد الرياضى فى الفكر الانسانى أمام المفكرين الأوربيين للمرة الأولى. وفضلا عن ذلك تتميز كتابات بيكون بنغمة من الجرأة الفكرية والاستقلالية التى يمكن ربطها بالموقف العام للعلماء المحدثين. والسؤال الهام الذى يبرز من ثنايا مؤلفات هذين الرجلين هو: لماذا جاءت الخطوات الأولى صوب العلم الحديث من الفرنسسكان ولم تكن نتاجا للحركة التوماسية؟ من ناحية، تكمن الاجابة فى طبيعة الفلسفة الأرسطية، ومن ناحية أخرى، نجدها فى الاتجاهات التى اتخذتها الحركة الفكرية الفرنسسكانية. إذ كان العلم الأرسطى هو أفضل العلوم المعروفة فى العالم حتى ذلك الحين، وهذا هو مادفع توماس إلى التفكير فى إدماجه فى الدين المسيحى. ولكن بما أن هذا العلم كان قائما على أساس من السببية الاستنباطية على مقدمات منطقية، فإنه كان طريقا مسدودا أمام محاولات توماس. وكان باكون هو أول من أدرك ذلك بوضوح. وبهذا المزج بين العلم الأرسطى والدين حول توماس العلم إلى نظام مغلق لا يمكن أن يتحرك فى اتجاهات جديدة. وربما كانت الحركة الفرنسسكانية، بتدينها العاطفى، تبدو نقطة بداية غريبة للعلم، لكنها كانت ذات خصائص معينة أثبتت

جدواها فى هذا السبيل. وكان أفلاطون هو الذى قال بأن الكون يعمل فى ضوء أشكال تتناسب تناسبا رياضيا مثاليا، والضوء الأفلاطونى الأول كما عبرت عنه كتابات جروستست، هو الذى قاده إلى نظريته عن المدلول الكمى للطبيعة. أما باكون، الذى كتب بعده بقليل، فكان متأثرا بالثورة الفرنسسكانية ضد الأرسطية، وهى الثورة التى كانت تهدد فى العقود الأخيرة من القرن الثالث عشر، بانفصام كاتدرائية الفكر المدرسية.

٢ - السلطة الأخلاقية للدولة:

أدت محاولات سان توماس، لوضع جميع مشكلات العقل الانسانى فى إطار نظام مضبوط، إلى قيامه بتطوير نظرية فلسفية كانت على درجة من الجسارة والأهمية تعادل جسارة وأهمية فلسفته وآرائه اللاهوتية. وكما اصطدم بالتراث الأفلاطونى للعصور الوسطى الباكرة فى تفسيره للطبيعة الإلهية، فإنه أوجد ثورة فى مجال الفكر السياسى أيضا. ففى العصور الوسطى الباكرة كان الفكر السياسى محكوما بعداء أوغسطين للدولة وإنكاره للخاصية الأخلاقية المستقلة للسلطة السياسية. فقد كانت الفلسفة الأوغسطينية تضع الارادة فوق العقل، بخلاف التعاليم الأرسطية؛ كذلك كانت الأوغسطينية السياسية تنفى وجهة النظر الأغريقية عن الدولة ككائن أخلاقى وجوده ضرورى لتحقيق الطاقات الانسانية الكامنة. إذ لم يكن الاغريق يستطيعون الاقتناع بأن الانسان يمكن أن يعيش بمعزل عن الدولة، ولكن أوغسطين كان يرى أن المهم هو الرجل الداخلى، وليس الرجل الاجتماعى. كما أن العلاقة بين الروح الانسانية والله القوأى هى فقط التى تجعل للحياة الانسانية معنى. وكان أوغسطين يرى أن الدولة، بحد ذاتها، مجرد مجموعة من اللصوص، ليست لها أية صفة أخلاقية، كما أن الدولة لا تكتسب أية سجايا أخلاقية سوى بقدر ما تمضى فى سبيل تحقيق أهداف مدينة الله. وحين تحولت الأوغسطينية إلى مذهب أكثر تحديدا، صارت هى النظرية السياسية للكنيسة فيما قبل القرن الثانى عشر، وهى نظرية كانت تجعل من الدولة خادمًا للكنيسة ولم تعط للدولة من الصفات الأخلاقية إلا بقدر خضوع الملكية نفسها لمطالب وأوامر السلطة الكنسية والبابوية على وجه الخصوص، وقد وصلت الأوغسطينية السياسية إلى أكمل شكل لها فى الجوانب الثورية للمذهب الجيلازى، وهبة قنسطنطين، وتصريحات جريجورى السابع. وفى القرنين الثانى عشر والثالث عشر حافظ رجال القانون الكنسى، العاملون تحت حماية البابوية، على هذه السلطة النظرية السياسية فى صياغة جديدة تمثلت فى

مذاهبهم القانونية عن السلطة البابوية المطلقة.

ولكن تدعيم السلطة العلمانية فى المجتمع على الصعيد الواقعى، وبشكل مطرد، جاء مناقضا لتراث السلطة الكنسية. ومنذ منتصف القرن الثانى عشر بدأ تيار جديد فى الفكر السياسى بين كبار مفكرى أوربا يطفو على السطح رويدا رويدا... ودون التخلى عن نظرية السمو النهائى للكنيسة، تمت محاولات لصياغة نظرية الدولة يمكن أن تتوافق بشكل أكثر واقعية مع الظروف الاجتماعية الفعلية، تكون فيها الحكومة الملكية ضرورة لا غنى عنها. وقد خطا حنا السالزبورى، وأوتو الفريزى، فى القرن الثانى عشر، الخطوات الأولى فى هذا الاتجاه الجديد، وبقى على توماس أن يصوغ الاتجاهات الفكرية الجديدة فى القرن الثانى عشر فى مذهب محدد، مثلما فعل فى مجالات الفكر الأخرى.

وكما كان الحال فى أعماله الفلسفية واللاهوتية، وجد توماس فى العلم الأرسطى منطلقا لمذهبه السياسى. إذ كان تأثره بكتاب «السياسة» لأرسطو يعادل تأثره بما كتبه فى الميتافيزيقا، والمعرفة، والأخلاق. وعليه فإنه كان مستعدا لتقبل وجهة النظر الاغريقية عن الضرورة الأخلاقية للدولة، ولتقبل مذهب أرسطو القائل بأن الانسان كائن سياسى يمكن أن تتحقق قواه الكامنة فى مجتمع سياسى. وهكذا كان مذهب أكويناس السياسى ثورة ضد تراث الأوغسطينية السياسية، واستعادة للرؤية الأغريقية عن المضمون الأخلاقى لسلطة الدولة. ولكنه لم يريد الاطاحة بما توصل إليه آباء الكنيسة، مثلما حاول فى مؤلفاته اللاهوتية حين رفض الأوغسطينية روحا ومنهاجا، وإنما يريد أن يتوصل فى الفكر السياسى إلى نقطة لا تبعد كثيرا عن التراث الأوغسطينى، وتستفيد، فقط، من حقائق العلم الأرسطى. وبعبارة أخرى، كان توماس أكويناس يريد أن يحافظ على الخاصية الأخلاقية للدولة كما يقول بها أرسطو إلى جانب الاحتفاظ للكنيسة بالسمو النهائى فى المجتمع. وقد حاول توماس هذا المزج الاستفزازى الجسور بين القديم والجديد فى فكر العصور الوسطى السياسى من خلال فلسفته القانونية. فقد أكد أن قانون الدولة يجب أن يتوافق مع القانون الطبيعى، الذى هو انعكاس للقانون السماوى، وحين يتوافق القانون الطبيعى للدولة بهذه الطريقة مع قانون الرب، تكون خاصيته الأخلاقية كاملة مطلقة. وبهذا المذهب القانونى كان أكويناس يظن أنه أعطى للسلطة السياسية خاصيتها الأخلاقية الضرورية، كما أنه أخضعها فى الوقت نفسه لوكالة الكنيسة عن الارادة الالهية. وكان يعتقد أنه اعترف بقيمة الزعامة العلمانية فى المجتمع المسيحى،

وحافظ مع ذلك على المذهب الجيلازى التقليدى.

كان هذا التوازن الهش، والمزج الواهى بين السلطة الكنسية والسلطة العلمانية فى النظرية السياسية التى وضعها توماس اكويناس، يتناغم مع طبيعة العلاقات بين الملكية والكنيسة فى منتصف القرن الثالث عشر من عدة وجوه. ولا شك فى أن حقائق الحياة السياسية قد شجعت أكويناس على أن يصوغ هذه النظرية التى يتخلى فيها عن الرؤية الأوغسطينية للدولة؛ فإن ما كان يجرى فى انجلترا، وفرنسا، وألمانيا فى أيامه كان يبدو منسجما مع فلسفته السياسية بشكل ملحوظ. فقد كان الملك الانجليزى، هنرى الثالث، رجلا قديسا طيعا استمر على نفس الموقف الودى الذى كان أبوه الملك جون قد أجبر على اتخاذه تجاه الكنيسة فى السنوات الأخيرة من حياته. وفى باريس نفسها تأكد المذهب التوماسى فى شخص لويس التاسع وموقفه، فقد بدا هذا الملك فى ناظرى توماس وكأنه تجسيد لمثاله السياسى. فقد ذاع صيت لويس بسبب الحملة الصليبية التى ضحى فيها بنفسه، وبسبب اضطهاده للهراطقة، وكراهيته لليهود. وتتكشف الصورة الشعبية للملك فى سيرته التى كتبها أحد نبلاء شمبانى البارزين، وهو أمير جوانفيل، وهى أول سيرة ملكية يكتبها رجل علمانى فى العصور الوسطى. وفى قصة جوانفيل عن لويس، يبدو الأخير رجلا قديسا، ولكنه شجاع ليس له من طموح سوى خدمة الرب ورفاهية شعبه. فهو يتحمل، دونما شكوى، معاناة كبيرة أثناء حملته المنكوبة على مصر، ويقضى نحبه فى تونس شهيدا، وهو يحاول مثل سان فرنسيس، تنصير المسلمين. وفى فرنسا يتحمل لويس دونما تذمر، المعاملة السيئة من أمه حين كانت هى الوصية على المملكة، ويتغاضى عن عصيان الأمراء المشاغبين دون أن يفكر فى الانتقام. وهو يصر على أن حكومته تحقق أسمى مثل العدالة المسيحية. ولكى يؤكد هذا يجلس الملك تحت شجرة بلوط ويفصل بنفسه فى القضايا التى يرفعها إليه رعاياه المحبون له. لقد كان الدكتور الملائكى (توماس أكويناس) والملك القديس (لويس التاسع) متعاصرين تقريبا، وكانت هناك حركة قوية فعلا لتقديسهما قبل موتهما. لقد كان سان لويس يبدو وكأنه التطبيق الحى للتوماسية السياسية.

وقد تأكد مثال أكويناس عن العلاقات بين الكنيسة والدولة بطرق أخرى أيضا. فقد شن الامبراطور فردريك الثانى حربًا ضد البابوية فى إيطاليا، ولكن البابا خرج ظافرا من هذا الصراع، وخلال حياة أكويناس، أُزيحت أسرة الهوهنتشاوفن المتمردين الطغاة من على وجه البسيطة، وسلم البابا أملاكهم إلى الأخ والملك

المسيحى المثالى لويس التاسع. كما أن التداخل بين السلطة البابوية والسلطة الملكية قد تكشف بوضوح خلال القرن الثالث عشر فى منح الحكومات الملكية نصيب من الضرائب الكنسية، عندما يقوم الملوك بمغامرات تحبذها البابوية وتحث عليها. وقد تجلى هذا واضحا أيضا من خلال تزايد التدخل البابوى فى التعيينات الكنسية فى شتى أرجاء أوربا على أساس من سوابق القانون الكنسى. وفى سبيل الحفاظ على سيطرتهم الكاملة على المناصب الكنسية، وجد الحكام العلمانيون أن من المفيد لهم أن يمنحوا البابا حق تحديد ووضع «شروط» ملء بعض الوظائف الكنسية داخل ممالكهم.

وهكذا بدت فلسفة توماس السياسية تعبيرا عن الوفاق السياسى الجديدة فى الحياة الأوربية وجاءت تكملة لأعمال إنوسنت الثالث خلال نصف قرن بعد وفاته، على الرغم من أنها كانت فلسفة ثورية استفزازية فى بعض جوانبها. فقد قام خلفاء هذا البابا بمواصلة العمل بسياسته، ومنهم جريجورى التاسع (١٢٢٧-١٢٤١)، وإنوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤) اللذان كانا يماثلان إنوسنت الثالث من حيث دراستها القانونية، وتجربتها الدبلوماسية والادارية، ودفاعها المستميت عن المصالح البابوية. وقد أحرزا بعض الانتصارات المدوية، وتمكنا بشكل عام من تقوية صرح البابوية الذى كان إنوسنت الثالث قد شيده. وعلى أية حال كانت هناك نواحى معينة فى علاقة البابوية بالملكيات الانجليزية، والفرنسية، والألمانية، وجدتها البابوية مزعجة فى حياة توماس أكويناس، وسان لويس، ولم يكن الوفاق السياسى الجديد، الذى كان مؤثرا إلى حد كبير، خاليا من نواحى القصور القاتلة وأوجه الضعف الخطيرة، فقد كانت هناك خلافات بين النظام المثالى التوماسى وحقائق الحياة السياسية لم يكن بوسع الدكتور الملائكى أن يستوعبها وهو قابع فى موقعه الممتاز فى جامعة باريس. إذ كانت هناك تغيرات تجرى فى المؤسسات والأيديولوجية التى قامت عليها ملكية القرن الثالث عشر، وهى التغيرات التى لم تكن أهميتها قد اتضحت تماما حتى العقود الأخيرة من ذلك القرن.

كان الموقف السياسى الانجليزى، منذ السنوات الأخيرة من عهد الملك جون، مثيرا لسخط البابوية على نحو خاص، إذ كان قد تم اخضاع الملك الانجليزى، ولكن ما كان يحير الكرادلة الايطاليين ويضايقهم هو اكتشافهم أن السلطة الملكية لم تعد تتحكم فى الحياة الانجليزية. فقد كان للبابوية آنذاك فصل إقطاعى هو الملك الانجليزى، ولكنه كان عاجزا عن فرض النظام داخل وطنه. وبدلا من ذلك كان

البارونات الانجليز، بتشجيع ومساندة بعض رجال الكنيسة، يضرمون نار التمرد والعصيان بغرض إحكام السيطرة على حكومة الملك. وروجوا لنظريات قانونية تخضع الملك لسلطة القانون الذى لا يمكن تغييره دون موافقة «مجموع المملكة»، كما كانوا يزعمون. وكانت أنباء هذه التجارب السياسية والأفكار الدستورية تبدو غريبة على مسامع زعماء البلاط البابوى الذين التصقوا بالتراث الرومانى - الكنسى عن السلطة المطلقة. ولم تكن هذه مجرد صدمة لمشاعر الكرادلة وأفكارهم عن النظام الصحيح، وإنما كانت أيضا خطرا يهدد سلطة الملك (الفصل البابوى)، ومن ثم فهو يهدد التدخل البابوى فى انجلترا بطريق غير مباشر. ونتيجة لهذا، وعلى مدى ستين سنة بعد خضوع الملك جون للبابوية، ظل البلاط البابوى يساند السلطة الملكية فى انجلترا ويعادى التجارب والأفكار الجديدة فى مجال الدستور، مما كانت له نتائج بالغة الأثر على العلاقات البابوية الانجليزية.

وفى سنة ١٢١٤ لقى جون هزيمته الثانية ومهانته الكبرى على يد عدوه اللدود فيليب أوغسطس ملك فرنسا، إذ كان قد تحالف مع قريبه أوتو الرابع لشن هجوم على جبهتين على مملكة آل كابيه. وكان المفروض أن يأتى أوتو من ألمانيا عبر الفلاندرز، أى عبر الطريق الذى كان للجيوش الألمانية أن تعتاده فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين، على حين يندفع جون من بواتو Poitou فى حركة تطويق كبيرة. وأحرز جون بعض الانتصارات الأولية، ولكنه لم يلبث أن انهار تحت وطأة إحدى نوبات الاحباط التى كانت تعتريه. وظل بلا حراك على حين جرد فيليب معظم جيشه ضد أوتو والحق بالامبراطور الألمانى هزيمة نكراء فى بوفينيس. هذه الكارثة العسكرية الثانية كانت إشارة لبلورة عصيان البارونات ضد سلطة آل أنجو فى انجلترا. وكان جون قد دأب منذ زمن طويل على استغلال حقوق التاج؛ مثل ضريبة الاقطاع، والخدمة العسكرية، والبدل النقدى بطريقة قاسية للغاية لكى يزيد من دخل الملكية عن طريق الضرائب. وكانت حكومة جون تواجه ضغطا هائلا؛ فقد كان لدى الملك جهاز إدارى ينمو بإطراد، كما أنه كان مشغولا فى مغامرات عسكرية ودبلوماسية بعيدة المدى، ومع التطور فى مجال التسليح، مثل الدروع المعدنية الثقيلة وغيرها من جوانب التحسين فى التكنولوجيا العسكرية، فقد كانت نفقات الحرب تتزايد باستمرار، وعلى أية حال، لم يكن زعماء البارونات متعاطفين مع جون فى ورطته، إذ لم يكن لديهم استعداد لدفع الضرائب الباهظة لتأييد ملك فاشل فى ساحة الوغى، جعلهم يخسرون أراضيهم فى نورماندى، كما أنه أفسد ساحات

البلاد لاستصدار أحكام ضد عائلات البارونات الذين كان يشك فى ولائهم لأسباب تافهة، أو دونما سبب فى كثير من الأحيان. فضلا عن أن الملك كان قد لقى الهزيمة والامتهان على يد البابا، كما أنه دخل فى علاقة تبعية للبابا، وهو الأمر الذى كان منعطفا خطيرا فى العلاقات الانجليزية - البابوية منذ زمن ولم الفاتح.

كانت غالبية البارونات الكبار، بقيادة بعض العائلات الشمالية التى عانت بشكل خاص من الاجراءات الفاسدة فى المحاكم الملكية، قد أعدوا العدة لأول عصيان حقيقى ضد الملك فى انجلترا منذ الغزو النورمانى. ويبدو أن الحركة البارونية كانت ذات أهداف محددة واعية حددها لها ستيفن لانجتون كبير أساقفة كانتربورى الذى كان أبعد ما يكون عن التزلف إلى البابوية، كما كان متوقعا، وإنما صار رجلا ذا موقف مستقل وقوى. وقد نسق ستيفن موقف الكنيسة الانجليزية مع الزعامات العلمانية فى الشكل الذى عرف فيها بعد باسم «جماعية المملكة الانجليزية»، متجاهلا بذلك حقيقة أن الملك جون هو الفصل الاقطاعى للبابا. ويبدو أن ستيفن هو الذى اقترح على البارونات أن يصوغوا شكاواهم فى شكل «وثيقة عظمى» أجبروا الملك على الموافقة عليها وختمها فى سنة ١٢١٥م. وكانت السابقة التى صاغ ستيفن على نسقها «الميثاق الأعظم» «Magna Carta» هى وثيقة تتويج هنرى الأول والوعود التى قطعها على نفسه فى هذه الوثيقة تجاه الكنيسة والشعب فى سنة ١١٠٠م. ويتضمن الميثاق الأعظم Magna Carta قائمة طويلة بحقوق البارونات والامتيازات التى وعد الملك بعدم انتقاصها. وبطبيعة الحال، كان الميثاق وثيقة فى صالح طبقة البارونات، ولكن هذه الطبقة زعمت أنها تتحدث نيابة عن «الشعب الانجليزى بأسره». وقد وضع «الميثاق الأعظم» قيودا صارمة على السلطات المالية للملك؛ وقد حذفت قيود كثيرة منها فى الاصدار النهائى للميثاق على يد هنرى الثالث سنة ١٢٢٥. وعلى كل حال، فإنه لأمر بالغ الأهمية أن البارونات لم يحاولوا تدمير النظام العام القانونى الذى كان هنرى الثانى قد أكمله، كما أنهم لم يحاولوا أن يستعيدوا للمحاكم الاقطاعية الخاصة ما كان لها من سلطات واختصاصات انتزعتها منها المحاكم الملكية. كذلك لم يحاول أحد من كبار النبلاء أن يحصل على تنازلات خاصة له؛ فقد كانوا يتحدثون كمجموعة تختلف حرياتهم من مكان لآخر فى سائر أرجاء المملكة. لقد كان هذا نتاجا لمائة وخمسين سنة من الحكم المركزى القوى فى انجلترا أدى إلى توحيد البلاد لدرجة أن كبار الأمراء المحليين لم يكونوا يقدرون على تصور حرمان أنفسهم من الادارة الملكية والقانون الملكى الكفء، على الرغم

من أنهم كانوا يريدون تغيير السلطة الملكية. بل إنه حتى لم يرد بخاطرهم أن يقيموا امارات تتمتع بالحكم الذاتى.

وأهم ما فى الميثاق الأعظم Magna Carta يتمثل فى النظرية القانونية التى تجسدها العبارة القائلة بأن على الملك أن يراعى «قانون الأراضى»، وأنه لا يستطيع أن يتصرف ضد أحد دون اللجوء للاجراءات الواجب اتخاذها فى القانون العام.. وإذا رغب الملك فى أن يفعل شيئا يتخطى قانون الأراضى السائد، مثل فرض ضريبة جديدة، فإنه لا يستطيع أن يفعل ذلك إلا بموافقة مجموع الأمة. وهكذا أعاد الميثاق الأعظم تأكيد المبدأ الدستورى الجرمانى الذى أدمج فى القانون العام: وعلى حد تعبير أحد كبار القانونيين الانجليز فى القرن الثالث عشر «فى انجلترا يحكم القانون لا الارادة». ولأن الميثاق الأعظم يعبر عن فكرة سمو القانون فوق الارادة الملكية، فقد صار بمثابة صيحة تنبيه هامة لأجيال الإنجليز اللاحقة فى نضالهم ضد السلطة الملكية. وإبان القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر كان السخط والغضب الناجم عن استبدادية سلطة الحكومة الملكية يعبر عن نفسه فى المطالبة بالتأكيدات الملكية للميثاق الأعظم. وقد رأى رجال القانون العام الانجليز فى القرن السابع عشر أن الميثاق الأعظم قلعة تحمى الحرية الانجليزية فى مواجهة الطغيان الملكى، بل أنهم قالوا أن الميثاق الأعظم أكد المحاكمة عن طريق المحلفين بمعنى الكلمة. وعلى الرغم من أن نظام المحلفين الذين يصدرون الحكم لم يكن قد تطور فعلا حتى أواخر القرن الثالث عشر نتيجة لتحريم مجمع اللاتيران الرابع للمحنة كطريقة للتحقيق، فإن التفسير الذى صدر فى القرن السابع عشر للميثاق الأعظم لم يكن تفسيرا عبثيا كما قال كثيرون من النقاد المحدثين. فالمذهب الأساسى فى الميثاق الأعظم هو أن الملك لا يستطيع أن يتصرف حيال أى فرد حر فى مملكته سوى باتخاذ الاجراءات الواجبة فى القانون العام السائد أيا كانت مؤسساته.

والعبارة الأخيرة فى الميثاق الأعظم تؤيد قيام البارونات بالتمرد العام diffidatio ضد الملك وعصيانه إذا لم يف بوعوده. وسرعان ما توفر للبارونات السبب اللازم لتنفيذ هذا الشرط. فقد لجأ الملك جون إلى البابا انوسنت الثالث، سيده الاقطاعى، لكى يحله من إيمانه التى قطعها على نفسه للبارونات، والتى زعم أنها كانت على كره منه، وسرعان ما استجاب البابا الذى لم تكن تروق له المدلولات النظرية فى الميثاق الأعظم، كما أنه لم يكن راغبا فى أن يقلل من سلطة الملك الانجليزى. بل إن انوسنت وبخ لانجتون على صياغة الميثاق وأوقفه عن ممارسة مهام منصبه. وحمل

البارونات السلاح ضد الملك وطلبوا من ابن فيليب أوغسطس أن يساعدهم، ولكن موت جون يسر السبيل لاعادة اقرار السلام بين الحكومة الملكية والأمراء. إلا أن هنرى الثالث، وريث جون، لم يكن أكثر نجاحا منه فى ممارسة السلطة الملكية. وبعد أن وصل إلى السن القانونى فى عشرينيات القرن الثالث عشر توالت الكوارث، الواحدة تلو الأخرى، لتدمر علاقاته مع زعماء المجتمع فى المملكة، حتى قام مؤتمر من البارونات فى سنة ١٢٥٨ بانتزاع سلطة الإدارة الملكية، وفى سنة ١٢٦٤ حاول هنرى أن يستعيد السيطرة المباشرة على الإدارة الملكية ولكنه هزم فى معركة أمام البارونات ووقع فى الأسر.

كانت الأزمة الدستورية فى عهد هنرى الثالث نتيجة لضعفه كملك ولتطور الأفكار الدستورية الواردة فى شروط الميثاق الأعظم. كان هنرى رجلا مخلصا للغاية وذا ذوق جمالى. وكان هو المسئول إلى حد كبير عن بناء ديرويستمنستر فى شكله الحالى. ولكنه فشل كجندى؛ فقد خسر بواتو أمام لويس التاسع، الذى كان زوجا لأخت زوجته، والذى كان يكن له قدرًا كبيرًا من الاحترام ويعامله بكل التبجيل والإكرام. بل أن هنرى كان أكثر خضوعا للبابوية بحيث سمح لنفسه بالتورط فى الخطط البابوية الرامية إلى استبدال الحاكم الألمانى من الهوهنشتاوفن بملك آخر أكثر خضوعًا. وقدم البابا عرش صقلية لابن هنرى لقاء ثمن باهظ دفعه الملك من دخل الخزانة الملكية. وكانت الوسيلة الوحيدة، لكى تحصل الحكومة الملكية على دخل غير عادى لهذا الغرض وغيره، فرض أشكال جديدة من الضرائب. وكان الجهاز الادارى للملك جون قد جرب استغلال المبدأ القديم الخاص بالضريبة الاقطاعية المعروفة باسم «المساعدة اللطيفة». وكانت هذه ضريبة خاصة على الأفصال أن يدفعوها لسيدهم لغرض معين، ولكن بموافقتهم ورضاهم. وقد استطاع الملك جون، باعتباره السيد الاقطاعى الأعلى لجميع الأمراء الانجليز، أن يحصل على موافقة الأمراء على مساعدته لقتال الملك الفرنسى. واستغلت حكومة هنرى الثالث هذه السابقة عدة مرات للحصول على الموافقة بفرض ضريبة على موارد وممتلكات الأمراء وأفصالهم. وكان موظفو الأقاليم الذين لا يتلقون أجورا عن وظائفهم، هم المسئولين عن جباية هذه الضريبة. وكانت الأساليب التى استخدموها مشابهة لتلك التى استخدمت فى جباية ضرائب العشور التى كانت الكنيسة قد فرضتها سنة ١١٨٨ لتمويل الحملة الصليبية الثالثة. وحين زاد ضيق الأمراء من حكومة هنرى، لم يستطع الملك أن يحصل على موافقتهم بفرض ضرائب جديدة.

واضطر إلى أن يقصر فى الدفع للبابوية، مما جعل البابا يسلم صقلية إلى أخى الملك الفرنسى. وقد أدى هذا إلى وضع هنرى الثالث فى وضع لا يحسد عليه. فقد كانت خزائنه خاوية، كما كان البارونات ينتقدون ادارته بعنف. وكانوا غاضبين من جراء موقفه المتخاذل من البابوية، وبسبب الوظائف الملكية والكنيسة التى كان يهبها لأقاربه الفرنسيين ومؤيديه. وكما حدث سنة ١٢١٥، قام بعض رجال الكنيسة، ومنهم رئيس الفرنسسكان فى انجلترا بتوجيه السخط المضطرم فى انجلترا. إذ أحس كثيرون من الزعماء الكنسيين أن البلاط البابوى فى روما يتجاهلهم ويسلبهم حقوقهم، ويسىء معاملتهم، لاسيما وأن هذا البلاط البابوى عقد الصفقات مع الملك لفرض الضرائب على رجال الكنيسة، كما أنه ملأ الوظائف الكبرى فى الكنيسة الانجليزية بالايطاليين.

وقد وجد البارونات ورجال الكنيسة الساخطون الهامهم فى شعور وطنى جنينى اتخذ شكل كراهية الأجانب، وظهر أيضا فى تأكيدهم لضرورة مراقبة الملكية عن طريق ممثلى مجموع سكان المملكة. بيد أنه لم يعد بوسع البارونات أن يزعموا أنهم وحدهم المتحدثون باسم البلاد ككل. إذ كان أبناء الشرائح الدنيا من النبلاء وفرسان المقاطعات يلعبون دورا هاما فى شئون الادارة والضرائب فى المقاطعات. وكانوا فى سبيلهم لأن يصبحوا طائفة متمايزة، أو طبقة، فى المملكة. ولم يعد باستطاعة البارونات الكبار أن يزعموا أنهم ينوبون عنهم. كذلك فإن البورجوازيين، ولاسيما فى لندن، قدموا اسهامات تجارية هامة فى البلاد. وعلى الرغم من أن وضعهم القانونى والاجتماعى كان ما يزال أدنى من وضع ملاك الأراضى، فإنه كان من المفيد ربطهم بحركة البارونات، بسبب ما يتمتعون به من ثروة. وفى سنة ١٢٦٥م قام زعماء البارونات، وربما كان ذلك بمشورة أصدقائهم الفرنسسكان، بدعوة ممثلى الفرسان والبورجوازيين إلى اجتماع لمجلس المملكة الكبير، وهو المجلس الذى يحضره أعيان الأمراء العلمانيين والكنسيين حتى اليوم. كان هذا هو أول مجلس مشترك للطائفتين اللتين كانتا تتقاربان سويا فى هذه اللقاءات التى كان المجلس فى أواخر القرن الثالث عشر يعقدها بين الحين والحين، والتى عرفت باسم «البرلمانات Parliaments». وفى سنة ١٢٦٥ اجتمع الفرسان والبورجوازيون للدعاية، ولكن مجرد حقيقة أنهم دعوا إلى هذا الاجتماع تكشف عن وعى جديد من جانب البارونات بأنهم لا يمكن أن يتحدثوا نيابة عن شعب المملكة بأسره. وكان المذهب الدستورى للبارونات هو أنه فى المسائل التى تخص المملكة كلها - مثل

التشريعات، والضرائب، والسياسة الخارجية - يجب على الملك أن يتصرف بموافقة المملكة ككل. وكانت دعوة الفرسان والبورجوازيين تعبيرًا عن هذا الرأى.

كانت المؤسسات النيابية شائعة فى أوربا القرن الثالث عشر. فقد استخدمت فى الاجتماعات الاقليمية لأمراء فرنسا، وفى مجلس الضياع الأسبانى Spanish Cartes، وفى حكومات المدن. وهناك رأى يقول أن هذا التطور كان نتاجا لنشر الفكرة القانونية الرومانية عن المراقبة القضائية والتفويض القانونى. وكانت انجلترا هى البلد الأوربى الوحيد الذى كانت فيه المؤسسات النيابية، التى بدأت فى ستينيات القرن الثالث عشر، تلعب دورا بالغ الأهمية فى الحياة السياسية، مع أن انجلترا هى البلد الوحيد الذى بقى خارج منطقة تأثير القانون الرومانى. فقد كان غالبية القضاة الانجليز قبل نهاية القرن الثالث عشر من رجال الكنيسة المعتادين على القانون المدنى والقانون الكنسى. ومن الممكن أن تكون فكرة النيابة قد تسربت إلى المملكة عن طريق أولئك المشرعين. ولكن بينما يحتمل أن تكون فكرة الوكالة قد ساعدت على اعطاء الشكل الرسمى للحياة النيابية الانجليزية، فمن الواضح أنه كانت لهذا النظام جذوره العميقة فى انجلترا. ففى صياغة القانون العام كان المفروض أن تقوم هيئة المحلفين بالكلام نيابة عن «البلاد» بأسرها فى المقاطعة. وكان المحلفون يحضرون سجلات جميع القضايا من المقاطعات إلى المحاكم الملكية، كما كان أولئك المحلفون يمثلون البلاد أمام القضاة الملكيين. وكان اجتماع عموم المملكة من الناحية الفنية اجتماعًا موسعًا للمحكمة الملكية Curia regis ومن ثم فإن زعماء البارونات حين أرادوا فى سنة ١٢٦٥ عقد اجتماع موسع لمجلس عموم المملكة، كانت فى أذهانهم فكرة وتجربة النيابة التى عرفوها من خلال ممارسات القانون العام التى خبروها بالفعل. وكان البرلمان فى القرن الثالث عشر عبارة عن اجتماع خاص للبلاط الملكى لبحث الأمور العظمى فى الدولة، وكان من الممكن أن يدعى إليه ممثلون عن الفرسان فى المقاطعات وعن البورجوازيين أيضا، من أجل استغلال هذه الفرصة الكبيرة للحصول على موافقة جميع طوائف المملكة على سياسة الحكومة المركزية.

كان زعيم البارونات سنة ١٢٦٥ هو سيمون المونتفورتى Simon de Montfort الذى كان ابنا لسيد اقطاعى فرنسى يحمل نفس الاسم كان قد تولى قيادة الحملة الصليبية الألبيجنسية. وقد صار سيمون ايرل earl انجليزيا عن طريق وراثة جدته، وتزوج أخت الملك. وقد أهله ذكاؤه وقدرته، وصداقته مع الفرنسسكان لأن يكون

زعيما للحركة البارونية. وعلى أية حال، كان كثيرون من الأمراء الآخرين يفتقرون إلى سجاياه الممتازة، وحين صارت لهم السيطرة على الادارة المركزية وجدوا أن العمل شاق ويبعث على الضجر. ومن ثم بدأت الحركة البارونية تتحطم غداة انتصارها، وتحول كثيرون من الأمراء عن شئون الحكم المركزى سعيا وراء مصالحهم الخاصة. وفى سنة ١٢٦٥ نجح جيش ملكى يقوده ادوارد، وريث هنرى الثالث، فى هزيمة سيمون المونتفورتى وقتله. واستعاد هنرى سيطرته على الجهاز الإدارى. ولكنه متاعبه كانت درسا لابنه ادوارد الأول Edward 1 حين اعتلى العرش سنة ١٢٧٢. فقد كان ادوارد قد رأى مدى ما سببه الفشل العسكرى والخضوع للبابوية من خراب لأبيه. كما أنه صار على وعى بالمشاعر الجماعية والوطنية السارية فى البلاد، وعقد العزم على توجيه هذه المواقف لاعادة بناء السلطة الملكية فى انجلترا.

وفى نصف القرن الذى أعقب انوسنت الثالث كانت البابوية تنعم باخلاص الملك الانجليزى وولائه المطلق، وهو ما كان يتناقض تماما مع طبيعة العلاقات البابوية الانجليزية خلال السنوات المائة والخمسين السابقة. ولكن البلاط البابوى أحس بخيبة الأمل وهو يكتشف أن هذه الميزة الكبرى كانت، فى جانب كبير منها، ميزة تافهة بسبب الظروف الداخلية فى انجلترا التى كانت كل طوائف المجتمع فيها، ومنهم رجال الكنيسة، تريد تقييد السلطة الملكية. وكانت علاقات البابا بالامبراطورية فى تلك الفترة تختلف من جميع الجوانب تقريبا. ففى هذا الاتجاه كان على البلاط البابوى أن يناضل ضد عدو فائق القدرة هو الامبراطور الذى أعاد ذكرى الأيام الرهيبة لهنرى الرابع. وقد انتهى هذا النضال باكبر وأكمل نصر أحرزته البابوية على الملكية فى العصور الوسطى.

إذ أن الحل الذى كان انوسنت الثالث يعتبره حلا نهائيا للمشكلة الامبراطورية لم يستمر زمنا طويلا. فقد كان قد أعطى التاج الامبراطورى لفردريك الثانى (١٢١٥ - ١٢٥٠) شريطة أن يتنازل عن مملكته فى صقلية حالما يضمن ولاء الأمراء الألمان. وهذا ما تم له فى سنة ١٢١٨ عندما مات أوتو الرابع، الذى كان المرشح الأصلى للامبراطورية. بيد أنه لم تكن لدى فردريك أية نية للتنازل عن نابولى وصقلية، اللتين كانتا بمثابة المعقل القوى لسلطته. والحقيقة أنه لم يكن مهتما بألمانيا على الاطلاق، فلم يزرها سوى لتقديم تنازلات ضخمة للأمراء الألمان، والأساقفة، والمدن؛ إذ اعترف لهم جميعا بالسيادة الاقليمية الكاملة، وأطاح تماما بما كان باقيا مما فعله فردريك بربروسا وهنرى السادس لدعم السلطة المركزية. فقد

كان فردريك ايطاليا، وأراد أن يجعل من نفسه حاكما على ايطاليا كلها، وأن يخضع مدن الشمال الكبرى، التى نجحت فى مقاومة جده، تحت سيطرته الكاملة. واتخذ موقفا غامضا حيال مسألة ادماج الدويلات البابوية، وفى عشرينيات القرن الثالث عشر وجد أعضاء البلاط البابوى أنفسهم فى مواجهة احتمال بذوبان البابوية فى ايطاليا التى يحكمها آل الهوهنشتاوفن مرة أخرى.

لقد كان فردريك يزعم أن هدفه من غزو شمال ايطاليا لن يكون خطرا على استقلال البابوية، وربما كان صادقا فى هذا القول. ولكن البلاط البابوى لم يكن ينوى أن يختبر هذا على الصعيد الواقعى، لأن فردريك كان رجلا غريبا؛ فهو «عجيبة الدنيا» الذى يخرج على النظام الأخلاقى فى زمانه. فقد تربى يتيما فى صقلية على أيدى عدد من الأمراء، ولقى معاملة سيئة فى شبابه. إذ كان انوسنت الثالث هو الوصى عليه رسميا، ولكن البابا لم يبذل جهدًا كبيرًا لحماية مصالح القاصر الذى يتولى الوصاية عليه. وحين كبر فردريك صار رجلا وسيما ذكيا موهوبا للغاية: فقد كان جنديا قديرًا، وراعيا للفنون والعلوم، كما ألف مقالة ممتازة فى فن الصيد بالصقور. ولكنه كان مصابا بجنون العظمة يعتبر نفسه فوق المستويات الأخلاقية المسيحية اللاتينية. ومن المناسب أن نشير إلى تأليه النازيين لفردريك فى عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، بل إن أشهر وأفضل سيرة حديثة له هى تلك التى نشرت فى ألمانيا سنة ١٩٢٧ وعلى غلافها الصليب المعقوف. لقد كان فردريك الثانى نمطا من الفاشيين الثقافيين، إذ كان رجلا ذا حس متأنق، ولكنه مع هذا كان بلطجيا شرسا. وكان بلاطه وجهازه الادارى يغلب عليه طابع الاستبداد الشرقى. فقد تأثر كثيرًا بالبيزنطيين والعرب الذين كانت أعداد كبيرة منهم تعيش فى مملكته، وقد راق له التزلف والخضوع الذى كان الحكام فى البلاد الاسلامية يتمتعون به. ولم يكتف فردريك بتصوير نفسه كتجسيد متجدد للأباطره الرومان؛ بل إنه صور نفسه أيضا كزعيم ذى خصال مسيحانية. وكان هو ودعاته فى البلاط لا يتورعون عن انتهاك الحرمات برسم جوانب التشابه بين حياة فردريك وحياة المسيح.

وإذ كانت هذه هى مواقف فردريك وشخصيته، ومواردە، فقد أعتبرته البابوية عدوها اللدود، وبعد عشرين سنة من التباطؤ دخلت البابوية دوامة العنف ضده فى أربعينيات القرن الثالث عشر. وكانت المناوشات الأولية بين فردريك والبابوية قد اندلعت حول مسألة تافهة ولم تكن تخلو من روح الفكاهة. اذ كان فردريك قد أخذ شارة الصليب لكى يضمن تأييد انوسنت الثالث، ولكنه كان عازفا عن الوفاء

بقسمه الصليبى لأنه كان يتوق إلى شن حملته على شمال ايطاليا. وأخيرا، فى سنة ١٢٢٨ ذهب فعلا إلى الأرض المقدسة وهو مايزال تحت وطأة الحرمان البابوى بسبب عدم وفائه بالقسم الصليبى من قبل. ولم يفعل شيئا سوى التظاهر بقتال المسلمين[٤] ثم هرول عائدا إلى جنوب ايطاليا حيث قام جيش بابوى بغزو أراضيه، على الرغم من أن نجاح الغزو كان محدودا. وتم عقد معاهدة بين الامبراطور والبابا ولكنها انهارت حين أحرز فردريك نصرا ساحقا على جيوش العصبة اللمباردية سنة ١٢٣٩، وباتت سيطرته على شبه الجزيرة الايطالية احتمالا قريبا. ذلك أن المدن الايطالية لم تعد متحدة فى وجه السيادة الإمبراطورية كما كانت زمن فردريك بربروسا. ففى كثير من المدن كانت توجد عائلات أوليجاركية من الجبللينيين، وهو الاسم الذى كان يطلق على أشياع الحزب الامبراطورى فى المدن الايطالية. وحين وجد البابا جريجورى التاسع نفسه فى مواجهة هذا الخطر، استغل كل الموارد

---

(٤) تولى فردريك الثانى هوهنشتاوفن العرش الامبراطورى سنة ١٢١٥ وفى عنقه قسم بالذهاب فى حملة صليبية، واستطاع فردريك أن يؤجل الوفاء بنذره مره بعد أخرى بسبب مشاغله الداخلية، ثم تغير الموقف تماما سنة ١٢٢٥ بعد زواجه من يولاندا ابنه الملك حنابرين، والوريثة الشرعية لمملكة عكا. وبحق الزواج صار فردريك صاحب مملكة عكا، فقرر أن يذهب إلى الشرق للوفاء بنذره القديم المؤجل، وللاطلاع على شئون مملكته الجديدة فى الوقت نفسه. وفى الوقت الذى كانت البابوية تحث فردريك على الوفاء بقسمه الصليبى، كان السلطان الكامل الايوبى قد بدأ فى المراسلة الودية بينه وبين الامبراطور على يد سفيره فخر الدين يوسف بن حمويه. وفى سنة ١٢٢٧ أبحر الامبراطور بأسطول صغير من ثغر برنديزى بايطاليا ولكنه ما لبث أن عاد إلى أيطاليا مريضا، وكان رد الفعل البابوى عنيفا حين وقع البابا قرارا الحرمان على الامبراطور.

وفى سنة ١٢٢٨ توفيت يولاندا بعد أن خلفت لفردريك ولدا هو كونراد، وبدأ فردريك يطالب بمملكة عكا، بحق زوجته المتوفاة، فضلا عن حق الوصاية على ابنه منها وكان الملك العجوز حنابرين ما يزال حيا. وفى تلك الاثناء كانت المراسلات بين الكامل وفردريك قد وصلت إلى مرحلة الاتفاق، فقرر الامبراطور أن يذهب إلى الشرق لتوقيع الهدنة وتنفيذ شروطها، - وغادر ايطاليا فى اسطول صغير وستمائة فارس. ومن المثير للسخرية أن البابوية أصدرت قرارا ثانيا بقطع الامبراطور من رحمة الكنيسة لأنه قرر الوفاء بقسمه الصليبى دون أذن منها، بل أنها دعت إلى حملة صليبية ضده وهو غائب فى فلسطين. وفى الشرق تمكن الطرفان من عقد معاهدة سلام على أساس الشروط التى كان السلطان قد عرضها على زعماء الحملة الخامسة، وأهمها أن يتسلم فردريك مدينتى القدس وبيت لحم، وأن تكون مدة المعاهدة عشر سنوات وهكذا عاد الامبراطور بمكاسب ضخمة لم تستطع أية حملة أخرى تحقيقها دون أن يريق الدماء الاسلامية أو المسيحية.

(المترجم)

المتاحة للبابوية. فأصدر قرار الحرمان ضد الإمبراطور وأدانه بالهرطقة، ودعا إلى مجمع كنسى فى روما ليكون لهذه الاجراءات وقع أكثر فعالية. ولم يكن الإمبراطور الذى يعتبر نفسه فوق الخير والشر ليهتم كثيرا بالسلطات الدينية. فأمر قائد أسطوله بإغراق أو أسر عدد كبير من السفن التى كانت تقل رجال الكنيسة من كافة أنحاء أوربا فى طريقهم إلى روما. هذا التصرف الوحشى أقنع البابوية بأن الاجراءات المتطرفة فقط هى التى يمكن أن تنجح ضد فردريك. وفى سنة ١٢٤٥ عقد إنوسنت الرابع مجمعا فى ليون، أى فى أرض آمنة بالقرب من حدود مملكة لويس التاسع، ودعا إلى حملة صليبية، ولكنها لم تكن «حملة صليبية سياسية» تماما، كما يطلق عليها فى بعض الأحيان. ذلك أن فردريك كان قد اغتال رجال الكنيسة وصدم المشاعر الأخلاقية فى العالم المسيحى، وكانت معتقداته الشخصية تقترب كثيرا من الهرطقة، أن لم تكن تخرج عن نطاق العقيدة المسيحية تماما فى الواقع. لقد كانت دعوة إنوسنت الرابع لشن حملة صليبية ضد فردريك إجراء متطرفا، ولكن لم تكن هناك أية بدائل فى ظل الظروف السائدة، كما كان من الممكن تبريرها على أساس دينى.

وعلى أية حال، كان إعلان الحملة الصليبية ضد فردريك شيئا، والعثور على حاكم كبير فى أوربا يقبل المخاطرة ضد الامبراطور الذى يتحكم فى معظم موارد ايطاليا شيئا آخر. وفى السنوات الخمس الأخيرة من حياة فردريك كانت الحملة الصليبية ضده عملا يتسم بالعشوائية إلى حد كبير، وكانت فى أغلبها مجرد حرب دعائية. وحين اختفى رجل القرن الثالث عشر الخارق من على المسرح أخيرا فى سنة ١٢٥٠، عقدت البابوية العزم على مواصلة الحرب لتجعل منها حربا ضد أسرة الهوهنشتاوفن بأسرها حتى لا يظهر وحش آخر مثل فردريك ليهدد نائب المسيح. وعلى أية حال، فان كونراد الرابع (١٢٥٠ - ١٢٥٤) الابن الشرعى الوحيد، قد أبدى مقاومة عنيفة للغاية. ولكن موته، دون أن يخلف لوراثته أحدا سوى طفل صغير أنهى خط الهوهنشتاوفن على العرش الامبراطورى. وكانت هناك فترة من المشاجرات التافهة بين الأمراء الألمان وغيرهم من الحكام الأوربيين الذين رشحوا أنفسهم للعرش بانتخاب رودلف هابسبرج ملكا. وكان أميرا صغيرا متواضعا. وقد فرض الواقع على ألمانيا أن تكون عبارة عن مجموعة مختلفة من الدويلات المستقلة على مدى القرنين التاليين.

أما فى صقلية، فقد استمر خط الهوهنشتاوفن فى مانفرد Manfred

(١٢٥٤ - ١٢٦٦)، الابن الشرعى لفردريك، والذى صار زعيما قادرا مثل أبيه. وأخيرا قدمت البابوية اليائسة تاج صقلية إلى أخى لويس التاسع، شارل دوق أنجو Charles of Anjou الذى وصل إلى إيطاليا مع جيش قوى فى حملة خاطفة وقتل مانفرد، آخر حاكم من الهوهنشتاوفن فى صقلية. وبعد ذلك بعامين، أى فى سنة ١٢٦٧، ظهر كونرادين Conradin، الابن الأصغر لكونراد بجيش صغير فى جنوب ايطاليا، وقضى عليه الحاكم الفرنسى بسهولة. وتم أسر كونرادين الذى أعدم علنا فى نابولى باذن من البابا.

وتبدو أهمية النضال البابوى ضد فردريك الثانى وآخر ملوك الهوهنشتاوفن واضحة فى عدة جوانب. ففى المحل الأول انتهى هذا النضال بنصر درامى كامل كشف عن قوة البابوية وقدرتها على تدمير الملكية التى انتهكت القانون الأخلاقى وازدرت بالكنيسة. ومن هذه الناحية أكدت التوماسية السياسية عندما أوضحت أنه حتى أقوى الأسر المالكة التى تحدت نائب المسيح كان لابد لها من السقوط فى قرار الهزيمة أمام السيوف الروحية والمادية المترابطة، والتى تمسك البابوية بها جميعا. ولكن البعض استطاعوا أن يخرجوا بدلالات أخرى من سلسلة الأحداث؛ فعلى مدى خمس وعشرين سنة استطاع أحد الملوك أن يصمد لكل أنواع الأسلحة التى كانت بحوزة البابوية. فهل كان الكيان الضاغط للبابوية، والذى أقامه إنوسنت الثالث وخلفاؤه، هو الذى سهل سبيل الهجوم على الملكية والنيل منها؟ وكانت النتيجة الثالثة للصراع البابوى الامبراطورى فى القرن الثالث عشر هى حقن الحياة آنذاك بموقف جديد من العنف القاسى الذى بدأ يُسمم الجو الأخلاقى فى أوربا. فقد استخدم الامبراطور، ثم البابا، أكثر الوسائل تطرفا وبعدا عن الأخلاق، وهى وسائل كان من الصعب تبريرها حتى من جانب أخلص شركاء كل منهما. فقد اغتال الامبراطور الأساقفة، كما أن البابا اقتنص ابناء فردريك بدلا منه ومارس انتقاما دمويا ضد الشاب الذى كان آخر من بقى من سلالة الهوهنشتاوفن. وكما هى الحال دائمًا فى الحروب الطويلة اليائسة، يستخدم المدافع، فى نضاله المحموم من أجل البقاء نفس الوسائل القاسية التى يستخدمها المهاجم.

كان تعيين البابوية لشارل أنجو حاكما لجنوب ايطاليا وصقلية بمثابة الهبة الثانية من البلاط البابوى لحليفه الملك الفرنسى فى القرن الثالث عشر. فقد كانت الهبة الأولى هى كل الجنوب الفرنسى تقريبًا، نتيجة للحملة الألبيجنسية التى شنها إنوسنت الثالث. وكان الحدث الأخير هو أهم نقطة تحول فى تاريخ الملكية الكابية.

ذلك أن فيليب أوغسطس قد جعل من نفسه حاكما لشمال فرنسا بجهوده الخاصة ولكن مهمة غزو أغنى مناطق فرنسا وأكثرها سكانا كان يمكن أن تكون مهمة جسيمة، وربما مستحيلة دون الحملة الصليبية البابوية ضد الألبيجنسيين. ولم يكن فيليب قد شارك فى الحملة الألبيجنسية، ولكن عندما قتل سيمون المونتفورتى سنة ١٢١٨، الذى كان زعيم بارونات الشمال الذين يستولون على أراضى الجنوب لحسابهم الخاص، بات ضعف الحركة الصليبية واضحا بحيث برزت الحاجة إلى الزعامة الملكية. أما نبلاء الجنوب، الذين كانوا يحاربون لأسباب شخصية ووطنية أكثر منها دينية، فقد قاموا بآخر تحرك هام لهم. وأدى هذا إلى دخول جيش الأمير لويس، وريث العرش الفرنسى، فى الحرب حيث ارتكب مذبحة بشعة فى إحدى المدن الجنوبية. وخلال حكمه القصير، تحت اسم لويس الثامن (١٢٢٣ - ١٢٢٦) بدأ هذا المحارب المتوحش فى عملية ضم المقاطعات الجنوبية للتاج الفرنسى، ووصل قضاة محاكم التفتيش الدومينيكان مع المندوبين المحليين الفرنسيين، وفى غضون ربع القرن التالى دمروا ما كان قد بقى من الروح الاستقلالية لثقافة الجنوب الفرنسى التى كانت عظيمة يومًا ما. وفى سنة ١٢٤٩، صار أحد أخوة ملك فرنسا كونت تولوز، وبذلك حققت الملكية الكابية هدفها بالامتداد صوب البحر المتوسط، على الرغم من أنها لم تكن قوية حتى فى المنطقة المتاخمة لباريس قبل قرن من هذا الزمان.

وسنحت الفرصة الأخيرة للاقطاعيين الفرنسيين لايقاف تقدم السلطة الكابية فى القرن الثالث عشر فى السنوات الأولى من حكم لويس التاسع (١٢٢٦ - ١٢٧٠)، عندما كان الملك ما يزال قاصرا، وكانت الحكومة تحت وصاية أمه بلانش Blanche of Castile، التى كانت أول أميرة من تلك السلالة من الأميرات الاسبانيات التى أثرت على الحياة السياسية فى أوربا على مدى القرون الخمسة التالية. فقد انضم الشاب هنرى الثالث ملك انجلترا إلى الدوقات والكونتات المتمردين فى شمال فرنسا فى محاولة واهية لتقويض ما تم فى نصف القرن السابق ولكنهم لم يكونوا أندادا لبلانش وأبنها. وزاد من ألم هنرى أنه فقد المزيد من املاكه الفرنسية، وباستثناء دوق بريتانى المتوحش، أظهر الأمراء الفرنسيون، بما فيهم كونت شمبانى زعيم حركة التمرد عجزهم عن التصدى للسلطة الملكية، حتى عندما يكون آل كابيه فى وضع سيىء.

كانت الصفة القديسية فى لويس التاسع هى ما تحتاجه الحكومة الملكية خلال نصف القرن التالى لكى تطور مؤسساتها وتعزز سيطرتها على الجيوب الباقية من

السلطة الاقطاعية فى كل من الشمال والجنوب. فمع منتصف القرن الثالث عشر كانت محكمة الملك Curia regis الفرنسية قد بدأت تفرق بين الفروع المالية والقانونية المختلفة. ومن الفرع القانونى تطور برلمان باريس؛ الذى كان يتألف من قضاة وقانونيين محترفين مما شجع المتقاضين من شتى أرجاء المملكة على اللجوء اليه، وبذلك مد من نطاق السلطة القضائية الملكية وقلل من شأن محاكم البارونات. كذلك أكد البرلمان سيطرته على المحاكم الكنسية. كذلك عمل البيروقراطيون الملكيون بجد لتقليل استقلال المدن الفرنسية، التى كانت أعدادها وثرواتها قد زادت كثيرًا نتيجة لغزو الجنوب. وكان السخط الذى عم الكثير من المدن ضد الحكومات الاوليجاركية الفاسدة التى كانت تتحكم فى كومونات المدن هو الذريعة التى تذرعت بها الملكية للتدخل فى شئون المدن واخضاعها للسلطة المركزية. واستمرت الخصائص المميزة للبيروقراطية الفرنسية، والتى كانت قد ظهرت فعلا فى عهد فيليب أوغسطس، على حين زادت مسئولياتها وكبر حجمها. وكانت عبارة عن مجموعة قائمة بذاتها من رجال القانون الذين كان مبدؤهم المرشد الوحيد هو تنمية السلطة الملكية التى ربطوا أنفسهم بها ومدوا نطاقها بكل ذريعة قانونية كان يمكن لعلمهم وعبقريتهم أن تهتدى اليها. هذا الموقف القابض ربما كان هو السبيل الوحيد لبناء الدولة الفرنسية. ذلك أن المقاطعات الكثيرة التى ضمت إلى فرنسا كانت تحتوى على خليط من التقاليد الأقليمية، والسلطات الاقطاعية المتضاربة، والقوانين والعادات المحلية، والامتيازات الأسقفية والبورجوازية، لدرجة أرهقت الملك فى محاولة بناء الهوية السياسية الخارجية الواحدة لهذا الكيان. وكان وجود ملك قديس على عرش البلاد واجهة أخلاقية مثالية أتاحت للبيروقراطية الملكية أن تستخدم ما فى جعبتها من حيل وسلطان لخلق أقوى سلطة استبدادية فى أوربا. فالبارون، والأسقف، والبورجوازى الذين جربوا تجريدهم من امتيازاتهم السابقة باستمرار، كانت تريحهم دائما حقيقة وجود سان لويس تحت شجرة بلوط لكى يحكم بالعدل. فهل كان الملك هو الذى أمر بما فعله وزراؤه، أو هل كان يدرك ما يفعلونه؟ يبدو أنه لم يكن مجرد رئيس رمزى. اذ أنه كان يرسل «المحققين»، الذين برز الفرنسسكان بين صفوفهم للكشف عما كان المندوبون الملكيون فى الأقاليم Baillis ومساعدوهم يفعلونه باسمه، ولكى يسجلوا شكاوى الناس المحكومين. هذه التحقيقات كشفت، تقريبا، كل صنوف الاحتيال الذكى والقسوة الفظة التى عرفت عن البراعة الانسانية. ويبدو أن سان لويس كان متعاطفا مع رعاياه، ولكن أساليب الموظفين الملكيين هى التى لم تتغير.

وإذا كان امتداد السلطة الملكية الكابية على المملكة بأسرها يرجع إلى حد كبير إلى ما قام به الموظفون القانونيون الأفظاظ، الذين يبدو أن سان لويس لم يكن يمارس عليهم رقابة شديدة، فان توجيهه الشخصي للسياسة الملكية تجاه الكنيسة واضح تماما. فقد كانت تلك سياسة لم تجعل من الملكية الفرنسية خادما مطيعا للبابوية، على الرغم من أن هذه السياسة ربطت الحكومة الفرنسية مع البلاط البابوى بعلاقة تحالف قوية. ذلك أن هنرى الثالث ملك انجلترا، وقريب لويس التاسع، كان أكثر خضوعا فى علاقته مع البابا. فلم يحدث أبدا أن ضحى سان لويس بمصالح الملكية الفرنسية فى سياسته تجاه الكنيسة. وقد أكد على حق الملكية الفرنسية فى السيطرة على رجال الكنيسة الفرنسيين. ورفض مساعدة الأساقفة فى مصادرة أملاك البارونات الذين وقع عليهم قرار الحرمان كما تحدث بحدة إلى عدد من أبرز رجال الكنيسة لأنه اعتبرهم مقصرين فى القيام بواجبات مناصبهم. كذلك فانه طلب من البابوية والكنيسة الفرنسية مطالب مالية باهظة لتمويل حملته الصليبية ضد مصر. ولم يستجب لدعوة انوسنت الرابع لشن حملة صليبية ضد فردريك الثانى. لقد اتضح تماما مفهوم سان لويس عن العلاقات بين الكنيسة والدولة حين أزعجه استغلال المثال الصليبى للهجوم على ملك شرعى. بل أنه احتج على الضرائب البابوية على الاكليروس الفرنسى لتمويل هذه الحملة الصليبية. ولم يسمح لأخيه بغزو جنوب إيطاليا سوى بعد إملاء شروطه الخاصة حول هذه المغامرة. ذلك أن البابا جعل لشارل كافة الحقوق على ما كان يشكل مملكة فردريك، وكان هذا البابا فرنسيا مثل سلفه الذى سبقه على العرش البابوى. وبنهاية عهد لويس التاسع كان هناك حزب فرنسى قوى بين الكرادلة، وكان لابد أن يتطلعوا صوب باريس طلبا لمن يتزعمهم.

كانت السيطرة الأنجوية على جنوب ايطاليا هى فصل الختام فى صعود السلطة الفرنسية فى أوربا، وهو الصعود الذى بدأ بغزو فيليب أوغسطس لنورماندى ١٢٠٤. وقد حدث تغير فى ميزان القوى فى أوربا سنة ١٢٧٠. فقد كانت الملكية الألمانية قد فقدت أهميتها تماما فى صياغة السياسة الأوربية. وحلت محلها الملكية الفرنسية الكابية، حليف البابوية القديم. أما البابوية، التى حاربت دهرا لكى تبقى الامبراطور الألمانى خارج ايطاليا فكانت تواقة إلى تتويج أخى أقوى ملك أوربى على المملكة الايطالية بدلا من الهوهنشتاوفن البغيضين. وبفضل موارد أغنى دولة فى أوربا. وبولاء الاكليروس الفرنسى، وبوجود معقل فرنسى قوى فى صقلية، وحزب

فرنسى فى هيئة الكرادلة نفسها، توفرت للملك الفرنسى الكابى القوة اللازمة للسيطرة على البابوية أكثر من أى ملك آخر منذ منتصف القرن الحادى عشر. ولكن فى سنة ١٢٧٠ لم تكن البابوية لتهتم باحتمال تعرضها للهجوم. وإنما على العكس، تولت قيادة عملية التهليل للملك الفرنسى الذى ظهر وكأنه ملك مسيحى كامل. ولم يكن ثمة سبب يدعوها للخوف من حاكم أكد الثقة التوماسية فى الخاصية الاخلاقية للدولة.

٣ - اهتمامات المجتمع:

بينما كان الزعماء الفكريون والكنسيون والسياسيون لأوربا القرن الثالث عشر يسعون لمواجهة التحدى المطروح بسبب الروح الابداعية فى القرن الثانى عشر، كان السيد الأقطاعى والبورجوازى والفلاح يسعون إلى أن يلائموا بين مصالحهم وأهدافهم الخاصة وبين التغيرات الاجتماعية بقدر الأمكان. وحتى زمن قريب جدا كان من السهل على المؤرخين أن يصفوا نموذج النظام الاجتماعى والاقتصادى فى القرن الثالث عشر. فقد كتبوا عن حياة النبلاء، وعن مدينة العصور الوسطى، وعن الضيعة. وكان هنرى بيرين هو النموذج الأمثل والافضل لمؤرخ العصور الوسطى الاجتماعى من النمط القديم. وكان هذا المدخل يقوم على قدر محدود للغاية من البحث والمعلومات مع قدر كبير من الاستنباط التخيلى للأنماط الاجتماعية المثالية. وأبان السنوات العشرين أو الثلاثين الماضية تحول اتجاه تاريخ العصور الوسطى الاجتماعى صوب الدراسات الاقليمية والمحلية المكثفة بعيدا عن التعميمات العريضة. وكان الفضل فى هذا يرجع أساسا إلى العلماء الفرنسيين الذين ألهمهم مارك بلوك. وكما هو الحال فى التطور العام لعلم الاجتماع فى العشرين، تحولت الحركة عن التأملات الجسورة للأنماط الاجتماعية المثالية إلى الجمع المكثف للمعلومات. ومن وجهة نظر أفقية عريضة للبناء الكلى لمجتمع العصور الوسطى، صوب نظرة رأسية، واقعية فى تفاصيل الحياة الاقتصادية والسياسية فى أقليم بعينه، أو بلد محدد، أو مدينة معينة. وتمثلت النتيجة الرئيسية لمثل هذا النوع من البحث المكثف المحدد فى طرح التساؤلات حول النماذج القديمة الموسعة، واعطاء الانطباع بمدى جسامة التنوع والاختلاف فى الحياة الاجتماعية فى العصور الوسطى. لقد طرحت التعميمات القديمة للتساؤل، وبدأت تعميمات جديدة تظهر فى بطء وعلى استحياء. ومع ذلك، فأنه ليس مؤكدا بعد إلى أى مدى كان هذا الاختلاف الواضح مجرد نتيجة للمنهجية التطبيقية (الامبريقية) الشائعة حاليا - وعما اذا كان الهجوم

على صلاحية النموذج الذى صاغه المؤرخون القدامى للاقتصاد والمجتمع فى العصور الوسطى نتيجة ميل إلى التعميم وهوى إلى التشبث بالاختلافات الصغرى والتغاضى عن أوجه الشبه الهامة. وعلى أية حال، فان الدراسات الحديثة عن المجتمع فى القرن الثالث عشر كان لها أثرها على الأقل من حيث التحذير من مغبة الخلق السهل للنماذج العامة، ومن خيث تأكيد وجود فروق اقليمية قوية فى حياة كل من السيد الاقطاعى، والبورجوازى، والفلاح.

كانت جميع الطوائف والطبقات فى شتى أنحاء أوربا القرن الثالث عشر تجد أن حياتها محكومة بأربعة عوامل عامة. كان العامل الأول منها هو الزيادة الكبيرة فى السيطرة الاجتماعية بسبب نمو الحكومة والمؤسسات القانونية. وثانيا أن المجتمع كان فى سبيله للتحول من مجتمع يقوم على أساس المكانة الاجتماعية إلى مجتمع يقوم على أساس المال. إذ كان ميلاد الإنسان ما يزال عاملا هاما فى تحديد مسار حياته؛ فقد كان من الصعب تماما فى كثير من مناطق أوربا على أكثر البورجوازيين ثراء أن يتمتعوا ببعض الإمتيازات التى كانت أمرا مسلما به لابن السيد الاقطاعى. ولكن المكانة الاجتماعية، من ناحية أخرى، لم تكن كافية لضمان حياة سعيدة آمنة. فلم يعد يهم ما يمكن أن يكون عليه أصل المرء من عراقة، ولكن القدرة المالية كانت هى المعول عليها فى الأوقات الصعبة. وكانت السنوات السبعون أو الثمانون الأولى من القرن الثالث عشر هى المرحلة النهائية لفترة من الإزدهار، والنمو السكانى والغلاء الذى ميز الاقتصاد الأوربى منذ منتصف القرن العاشر. هذا الوضع الاقتصادى العام كان له تأثير عميق على كافة الطوائف فى المجتمع. ورابعا، وأخيرا، كان القرن الثالث عشر هو عصر السلام الطويل المدى، وهو أمر لم يتحقق ثانيا على مدى عدة قرون تالية حتى الفترة ما بين سنة ١٨١٥ وسنة ١٩١٤. فمنذ معركة بوفينيس سنة ١٢١٤م حتى بداية الصراع المدمر بين إنجلترا وفرنسا فى تسعينيات القرن الثالث عشر لم تنشب أية حرب كبرى فى أوربا، وقد كان لحالة السلام هذه نتائجها الهامة والمختلفة على طبقات المجتمع.

ولم يكن النبلاء وملاك الأراضى المنحدرون من نسل السادة الاقطاعيين فى القرن العاشر يتمتعون بنفس الأهمية التى كانت لهم قبل سنة ١١٠٠، سواء فى مجال الحكم أو فى المجال الاقتصادى. بيد أنهم كانوا ما يزالون هم الطبقة السائدة فى المجتمع، وهو وضع إحتفظوا به لأنفسهم حتى القرن التاسع عشر. فقد كان ثمة تغير مطرد فى حياة النبلاء وتنظيمهم على المستوى الأفقى والمستوى الرأسى على

حد سواء. ومن الممكن أن نبرز نماذج إقليمية محدودة. ففى إيطاليا وجنوب فرنسا كان النبلاء يعيشون حياة حضرية راقية. أما السادة الألمان فكانوا أقرب إلى الطبقة المحاربة فى العصور الوسطى الباكرة: إذ أن تفكك ألمانيا إلى إمارات صغيرة مرتبكة أتاح للنبلاء الألمان فرصا عديدة للتصرف المستقل والدخول فى الحروب المحلية. ولم تكن للحياة الحضرية أى تأثير يذكر على ملاك الأراضى فى شمال فرنسا وإنجلترا. فقد نأوا بأنفسهم تماما عن الطبقة البورجوازية التى كانوا يعتبرون أبناءها فى مكانة اجتماعية أدنى. وكان هناك استقطاب متزايد بين النبلاء من كبار الارستقراطيين من جهة، وأولئك الذين يقلون عنهم ثراء من جهة أخرى. فقد صار كبار الارستقراطيين طائفة مغلقة من ذوى الدماء الراقية والأخلاق والمراسم الخاصة، على حين أخذ صغار النبلاء يتحولون إلى سادة محليين، يتسمون فى كثير من الأحيان بنفس الغلظة والجهل اللذين يتميز بهما الفلاحون الذين عاش صغار النبلاء بينهم.

كان السيد الاقطاعى فى القرن الثالث عشر، ولاسيما فى إنجلترا وفرنسا، محددا بنظم حكومية وقانونية وضريبية قوية. وكان شخصا يختلف تماما عن أولئك البلطجية الذين عاشوا فى القرن العاشر، بل وعن كثيرين ممن إشتركوا فى الحملة الصليبية الأولى. وكان هذا، بطبيعة الحال، ينطبق بصفة خاصة على الشريحة العليا من النبلاء. إذ كانوا، عموما، ذوى حظ من التعليم قليل - بحيث يكفيهم لأن يكتبوا الخطابات باللهجات المحلية، ويقرأوا روايات الفروسية الخيالية، أو المقالات الصغيرة عن حياة أحد السادة أو أحد نظار الضياع. وكان معظم إنتاج هذا الأدب مكتوبا باللغة الفرنسية، التى كانت قد صارت هى اللغة الدولية للطبقة الارستقراطية وظلت كذلك حتى القرن العشرين. وقد عرف القرن الثالث عشر ثلاثة، على الأقل، من النبلاء الفرنسيين كانوا أصحاب ثقافة عالية وعقليات راقية. فقد كتب وليم اللوريسى William of Lorris النصف الأول من «رواية الزهرة»، وهى عبارة عن نوع من الموسوعات فى القصة الرمزية كانت محبوبة جدا فى أوساط القراء الأرستقراطيين، ولا يزال البعض يعتبرونها عملا أدبيا عظيما. وثمة نبيل فرنسى آخر هو فيلهاردوين Villehardouin الذى كتب تقريرا أمينًا وافيا عن الحملة الصليبية الرابعة التعسة، لأنه كان أحد المشاركين فيها. وكتاب «سيرة القديس لويس» الذى كتبه جوانفيل تعتبر مذكرات شخصية كتبها أحد المقربين إلى الملك الفرنسى. وهى من بعض الجوانب تعتبر سيرة مثالية مثل السير الملكية السابقة التى كتبها مؤلفون كنسيون فى العصور الوسطى الباكرة، إلا أنها تقدم لنا الكثير من التفاصيل عن الظروف

المحيطة بحياة لويس، وما تـزال هى السيرة الـوحيدة التى تستحق القـراءة من بين السـير التى كتبت عن هذا الملك. وثمـة سيد اقـطاعى صغير عـاش فى إنجلتـرا فى منتصف القرن الثالث عشر، هو سـير والتر هينـلى Sir Walter Henley كتب لابنه مقالة عن إدارة الضياع. وهى منظمة جيدا وحافلة بالمعلومات العامة عن المحاصيل، وتربية الأغنـام، وإدارة الضياع الاقـطاعية. وفى القـرن الثالث عشـر كان السـادة الاقـطاعيـون يتلقـون تعليمهم فى المنـازل فى أغلب الأحـوال. ولكن بعض النبـلاء الحضريين فى شمال إيطاليا وجنوب فـرنسا كـانوا يتلقـون تعليما جـامعيا ويشتغلون بالقانون المدنى. ومنذ نهاية القرن الثالث عشر كان من الشائع فى إنجلترا أن ترسل الأسر النبيلة أبناءها إلى مدارس القانون العام فى لندن، والتى عرفت باسم الهيئـات القانونية Inns of Court لكى يتلقوا تعليما أوليا فى القانون، يسمح لهم فيما بعـد أن يكونوا فى موقف جيد فى قضاياهم التى لم تكن تتوقف تقريبا حول حقـوق الملكية. وكـان الكثير من أبنـاء النبلاء الصغـار، بطبيعـة الحال، يعـدون للعمل فى الكنيسـة ويرسلون إلى الجامعات؛ حيث صار عدد قليل منهم علماء وأساتذة.

كانت الحرب هى السبب الجوهرى raison d'être لـوجود النبـلاء أصلا، ولكن خلال فترة السلم الطويلة فى القرن الثالث عشر لم تكن هناك فرص كثيرة لإظهار المهارة العسكرية - كذلك بدأت ثـورة بطيئـة تأخـذ مجراهـا فى الحياة العسكـرية. فالفارس، المحارب المسلح على صهوة جواد، صار أكثر تكلفة بسبب التسليح الثقيل المعدنى الذى بات يشكل نسبـة متزايـدة من تجهيزاتـه. ومن ثم فإن الفـارس الذى كان يمكنه تجهيز نفسه كان عليه طلب كثير. وعندما كان أحـد الملوك يضطر إلى أن يجهز جيشا كاملا، كان ذلك يستنزف موارده ويجهدها تماما. ونتيجـة لذلـك، إضمحل تقليد جمع الأفصال الاقطاعيين على حين تزايد الإعتماد عـلى المرتـزقة المـأجورين. وفى مطلع القرن الثالث عشر كان الفارس ذو التسليح الثقيل هـو اللحمة والسـداة فى الشئون الحربية. وعند غروب شمس هذا القرن، وعندما كان الفـارس ما يـزال هو العمود الفقرى للجيش، قلت قيمته الإستراتيجية بسبب الإعتمـاد المتزايـد على المشاة. وكان لظهور أسلحة جديدة أثره فى تضاؤل قيمة الفارس تدريجيا على مـدى القرنين التاليين. فقد أظهر المرتزقة الفلمنكيون والسويديون فى العقود الأخيـرة من هذا القرن أن الفلاحين المنظمين جيدًا والمسلحين بـالحراب الـطويلة يمكنهم صد أى هجوم يقوم به جيش اقطاعى. وفى القرن الثالث عشر إتضح أيضـا أن الدرع يمكن أن يخترقـه نصـل معـدنى يـطلق من أى قـوس منجنيقى. ولهــذا أضـاف القــادة

العسكريون فى جميع أنحاء أوربا فيالق رماة الأقواس المنجنيقية إلى جيوشهم. وكانت نقطة الضعف الرئيسية فى القوس المنجنيقى أنه يجب ملؤه فى نفس اللحظة التى يكون الرامى «قد أطلق ما فى جعبته»، وعادة ما كان يتواجد خارج نطاق المعركة؛ وكان تأثير سلاحه المرعب الجديد، الذى يعتبر سلفا للبندقية من بعض الوجوه، محدودًا كذلك بمداه القصير وعدم دقته. وفى منتصف القرن الثالث عشر، توصلت الجيوش الإنجليزية المحاربة فى ويلز إلى القوس الطويل، وهو سلاح سريع الإنطلاق طويل المدى استخدمه الإنجليز ضد الفرنسيين فى القرن الرابع عشر. وكان النصل المنطلق من السهم الطويل لا يخترق الدروع فى أغلب الأحوال، ولكن كان ييسر إمكانية إطلاق السهام بكثرة تثير الفزع والفوضى فى صفوف الفرسان المشتبكين فى المعركة. ونتيجة لهذه التغيرات فى التكنولوجيا العسكرية صارت الدروع أكثر ثقلا والخيول أكبر حجما، ولكن هذا لم يحفظ للفارس تلك الأهمية الفائقة التى كانت له من قبل. وبنهاية القرن الثالث عشر كان الفارس يرقد بلا حراك إذا أسقط من فوق فرسه بسبب الثقل الكبير للباسه المدرع.

وعلى الرغم من التضاؤل المستمر فى أهمية الفارس، فلم يكن يخطر على البال إمكانية شن الحرب دون أن يكون النبلاء هم ضباط الجيش. فقد إحتفظ النبلاء بسيطرتهم على الحرب، على الرغم من التغير التكنولوجى، بسبب التقاليد والقيم الاجتماعية. وفقد صغار الأفصال الاقطاعيين ما كان لهم من أهمية؛ إذ كان من قبيل المخاطرة أن يذهب المرء إلى الحرب برجال لا يلتزمون بأداء الخدمة العسكرية سوى أربعين يوما فقط فى السنة، وربما يكونون فى حال سيئة من الإستعداد والتجهيز والتدريب. وبمنتصف القرن الثالث عشر كان المرتزقة قد صاروا هم الوحدة الأساسية فى الحياة العسكرية فى أوربا. ولكن الملك كان يرسل أبرز النبلاء لتجنيد فيالق المرتزقة وإعدادها للخدمة فى جيشه. وبسبب فترة السلام الطويل التى سادت فى القرن الثالث عشر لم تكن هذه الخدمة مطلوبة كثيرا من الأرستقراطيين حتى تسعينيات هذا القرن، مما أدى إلى شعورهم بالمهانة والإحباط. إذ لم يكن الفرد الأرستقراطى يعرف سوى القليل فى مجالات كثيرة جدا - مثل شئون الحكم، والقانون، والأدب، والزراعة - ولكنه كان خبيرا بشئون الحرب فقط.

وبسبب عدم استطاعة الكثيرين من كبار نبلاء القرن الثالث عشر إظهار تفوقهم العسكرى على غيرهم من فئات المجتمع، فإنهم أخذوا يبحثون عن وسائل اجتماعية وإحتفالية يعبرون بها عن مكانتهم. ومع نهاية القرن الثالث عشر كانت

الأرستقراطية قد تحولت إلى فئة منغلقة على نفسها، وكانت لها مفاهيم ومراسم لم يكن باستطاعة الاقطاعيين الأجلاف وعامة الفرسان أن يشاركوهم إياها. فقد تطور علم كامل عن الأنساب وفن شعارات النسب، مما كان تعبيرا عن الإعتقاد بأن النبالة مسألة تتعلق بالدم والوراثة دون غيرها. وصارت طقوس الفروسية أكثر زخرفة وتعقيدا، كما تم وضع قانون يحكم التعامل بين كبار الاقطاعيين على أسس أكثر شمولا، وكان الصبى الكريم المحتد يرسل فى سن السابعة أو الثامنة ليكون وصيفا فى بيت أحد كبار الأرستقراطيين حيث يتلقى تعليمه الأولى. وبعد ذلك بسنوات سبع يصبح تابعا ويتلقى تدريبه على السلاح. وأخيرًا وعندما يستطيع دفع التكاليف «يرتدى شعار الفروسية» فى إحتفال كبير يقسم فيه يمين الفروسية ثم يمنحه السيد الكبير لقب فارس. هذه الطقوس ومثيلاتها - التى إرتبطت فى أذهان العامة غالبا بالاقطاع - كانت فى حقيقة أمرها نتاجا لمرحلة التدهور فى النظام الاقطاعى. إذ كانت هى الوسائل التى حاولت الطبقة الحاكمة من خلالها أن تحافظ على مكانتها السابقة، وأن تستعيض بالإمتياز الطبقى عن فائدتها الاجتماعية.

وقد أدى إرتفاع منحنى الزيادة السكانية والتضخم الذى ساد ابان الشطر الأعظم من القرن الثالث عشر إلى جعل هذه الفترة فترة رواج لملاك الأراضى. وعلى أية حال، فإن ملاك الأراضى كانوا قد وقعوا فى براثن الديون الشخصية، ولاسيما كبار النبلاء منهم. ذلك أن الإنفاق على البيت الأرستقراطى ومواصلة الحياة بأسلوب الإسراف الذى كان كبار السادة الاقطاعيين قد إعتادوه كان أكبر من مواردهم الشاسعة فى كثير من الأحيان. فقد أفسدت الملكية النبلاء. إذ كان لدى الملك مصادر دخل كبيرة، وكان يستطيع إستغلال دخله من الضرائب الخاصة للإنفاق على حياته، ويعيش حياة الفخامة والأبهة. وتورط النبلاء فى الديون وهم يحاولون تقليد الملك، كما أن السادة الصغار، الذين كانوا بدورهم يقلدون كبار الأرستقراطيين، دمروا أنفسهم وهم يحاولون الحفاظ على أسلوب المعيشة الذى يخرج عن نطاق إمكانياتهم. وثمة سبب آخر لمتاعب النبلاء الاقتصادية تمثل فى سوء إستغلالهم لمواردهم. فقد تفوق بعضهم فى الزراعة، ولكن غالبية كبار النبلاء كانوا مشدودين إلى البلاط والمبارزات طوال يومهم بحيث لا يهتمون بالطريقة التى كان وكلاؤهم ونظار ضياعهم يديرون بها ممتلكاتهم الشاسعة. وربما كان كثيرون من نبلاء القرن الثالث عشر المرهقين يستغلون أراضيهم التى كانت غير خصبة، بجهود بائس لحل مشكلاتهم المالية. ولكن هذه المحاولات لم تكن تؤدى سوى إلى تصعيد

مشـاكلهم الاقتصاديـة. وبنهايـة القرن الثـالث عشر كـانت الأراضى التى إشتهرت بالخصوبة فى ألمانيا وإنجلترا وفرنسا قد أنهكت بحيث لم تعد تصلح للزراعة.

كانت الاهتمامات السياسية لنبلاء القـرن الثالث عشـر تختلف من بلد إلى آخر إختلافا بينا. ففى إيطاليا كانت الحياة السياسية لكبار الارستقراطيين مرتبطة بتـطور المـدن بطبيعـة الحـال. وحينـما حـدث فى أواخـر القـرن الثـالث عشـر أن إكتشف البـورجوازيـون أنهم لا يستطيعـون إدارة حكومـاتهم بإقتـدار، رحبـوا بـدفـع ثمن الاستعانة بالنبلاء وقبلوهم حكاما طغاة فى سبيل النـزر اليسير من السـلام والنظام. وهذا هو أصل «أمراء للنهضة» الذائعى الصيت. وقـد أتاح تفكـك ألمانيـا السياسى الفرص لتقدم كبار النبلاء، بل وصغارهم أيضا. إذ كان هنـاك دائما بـلاط يمكن لأى نبيل متعلم، ذكى وجرىء، أن يجد لنفسه مكانا هاما فيه، حتى ولو كـانت إمكانيـاته متواضعة. وظل هذا هو الوضع السياسى والاجتماعى السائـد فى ألمانيـا حتى القرن التاسع عشر. أما فى فـرنسا وإنجلتـرا، فإن حيـاة النبلاء كـانت محكومـة بمؤسسـات الملكيـة الوطنيـة. إذ أن نبلاء فـرنسا القـرن الثـالث عشـر وجـدوا إختصـاصـاتهم الاقطاعية تتبخر على حين تتحكم فيهم الإدارة الملكية الصارمة فى كـل مجال. ولكن الضرائب الملكية لم تكن باهظة، كما أن التاج أرسى دعائم السلام، والنظام، والأمن؛ وهـو ما كـان الاقطاعيـون يرونـه ميزة فى صـالحهم، لاسيـما أن الحـرب لم تكن فى صالحهم. وبالنسبة للنوع الأكثر عدوانيـة بين النبـلاء الفرنسيـين فى القرن الثـالث عشر، كان ثمة متنفس لطاقاتهم العدوانية فى الحملة الصليبية ضد الألبيجنسيين وحملة غزو صقلية. وبسبب إتسـاع مساحـة الريف الفـرنسى، وتنوع التقـاليد الـريفية، لم تكن الأرستقراطية الفرنسية أبدا مجموعة متقاربة سياسيا. كانت الحكومة الملكية هى التى تستـطيع أن تجسـد وحدة المملكـة. أما النبـلاء فقـد ظلوا يفكـرون فى أنفسهم بإعتبارهم نورمان، أو بريتونيين، أو برجنديين... أو غير ذلك. ولم يكن هنـاك مجلس عـام للنبلاء الفـرنسيين حتى اجتمـاع الهيئة العـامـة Estates Generale فى القـرن الرابع عشر، وكان هذا الاجتماع مجرد إجراء دعائى ولم يكن بدايـة لمؤسسة فعـالة. وكانت المجالس الهامة الوحيدة لدى النبلاء الفرنسيين هى المجالس المحلية، ومجالس المقاطعات، والمجالس الإقليمية. ولم تكن الملكية الكابية تجمع النبلاء سويا للحصول على موافقتهم على الضرائب؛ وإنما كانت تتعامل معهم بطريقة جزئية تقسيميـة، وهو مـا كان إنعكـاسا لحقيقـة أن النبلاء كـانوا يميلون إلى التفكـير فى ضـوء مشـاكلهم الخاصة دون الاهتمام بمشاكل المملكة ككل. أما الموقف فى إنجلترا، فكان مختلفا تمـام

الإختلاف، لأنها كانت بلادا أصغر مساحة من فرنسا من ناحية، وبسبب التقاليد الأطول عمرا عن وحدة السلطة الملكية وإنسجامها والقانون العام الذى يحكم المملكة بأسرها من ناحية ثانية، لأن كبار النبلاء غالبا ما كانوا يمتلكون الضياع فى مقاطعتين أو أكثر من ناحية ثالثة. ولم يكن النبلاء الإنجليز يفكرون فى أنفسهم باعتبارهم من كنت، أو ديفون، أو يوركشاير، وإنما باعتبارهم زعماء للمجتمع فى المملكة ككل. ومنذ زمن الغزو النورمانى كانت تتم دعوتهم من كافة أركان المملكة لحضور الاجتماعات الكبرى فى محكمة الملك Curia regis، وكان من الطبيعى أن يؤدى هذا التقليد إلى إستشارة كبار النبلاء حول الضرائب والتشريعات والحصول على موافقتهم عليها. وكانت الأرستقراطية الإنجليزية تعرف عن أعمال الحكومة الملكية قدرا أكبر بكثير مما يعرفه أقرانهم الفرنسيون، وكان هذا من بين أسباب محاولتهم توجيه الإدارة الملكية فى عهد هنرى الثالث.

كانت مشاعر المرارة تضطرم فى صدور البورجوازيين فى إنجلترا وشمال فرنسا من جراء إستمرار سيطرة النبلاء على المجتمع، وإستئثار كبار السادة الأرستقراطيين بالإمتيازات القانونية والسياسية. ويتسم الأدب البورجوازى بصوره الناقدة الساخرة من النبلاء ورجال الكنيسة الذين كانوا ينعمون بالإمتيازات الطبقية التقليدية، التى كانت فى نظر البورجوازيين، شيئا لايستحقونه. فالقصص الرمزية التى تحمل قدرا من التمويه، مثل القصص الخرافية الشائعة التى تدور حول رينارد الثعلب Reynard the Fox كانت تنفيسا مريرا عن مشاعر البورجوازيين وإحساسهم بأنهم ضحية الإستغلال. وكانت نظرتهم للحياة بالضرورة أكثر عقلانية، وأقل خيالية من تلك النظرة التى كانت سائدة فى آداب الفروسية. هذه العقلانية والسخرية هى التى تميز الجزء الثانى من «روايات الزهرة» التى كتبها جان دى مين Jean de Meun، الذى كان بورجوازيا فرنسيا تعلم فى الجامعة، عن مثالية أدب البلاط التى يتميز بها الجزء الأول من هذه الروايات. ولم يكن باستطاعة البورجوازيين عموما فى القرن الثالث عشر أن ينظرا إلى الحياة نظرة خيالية؛ فقد كان عليهم أن يعتمدوا على مواهبهم الخاصة وطاقاتهم حتى يتجنبوا الوقوع فى فخاخ الفقر المزرى. لقد كانت أسوار المدينة فى العصور الوسطى تضم مجتمعا متنافسا للغاية، على الرغم من الجهود التى كانت نقابات الحرفيين القديمة تبذلها للسيطرة على الحياة الاقتصادية، وهو مجتمع كان فيه الإحسان إلى الضعيف والعاجز قليلا. ومع هذا فإن التاجر نفسه والذى كان ناقدا متشككا، بلا أوهام، كان مخلصا تماما لزعامة الرهبان الفرنسسكان على الكنيسة؛ إذ كان يقف ساعات طوال لكى

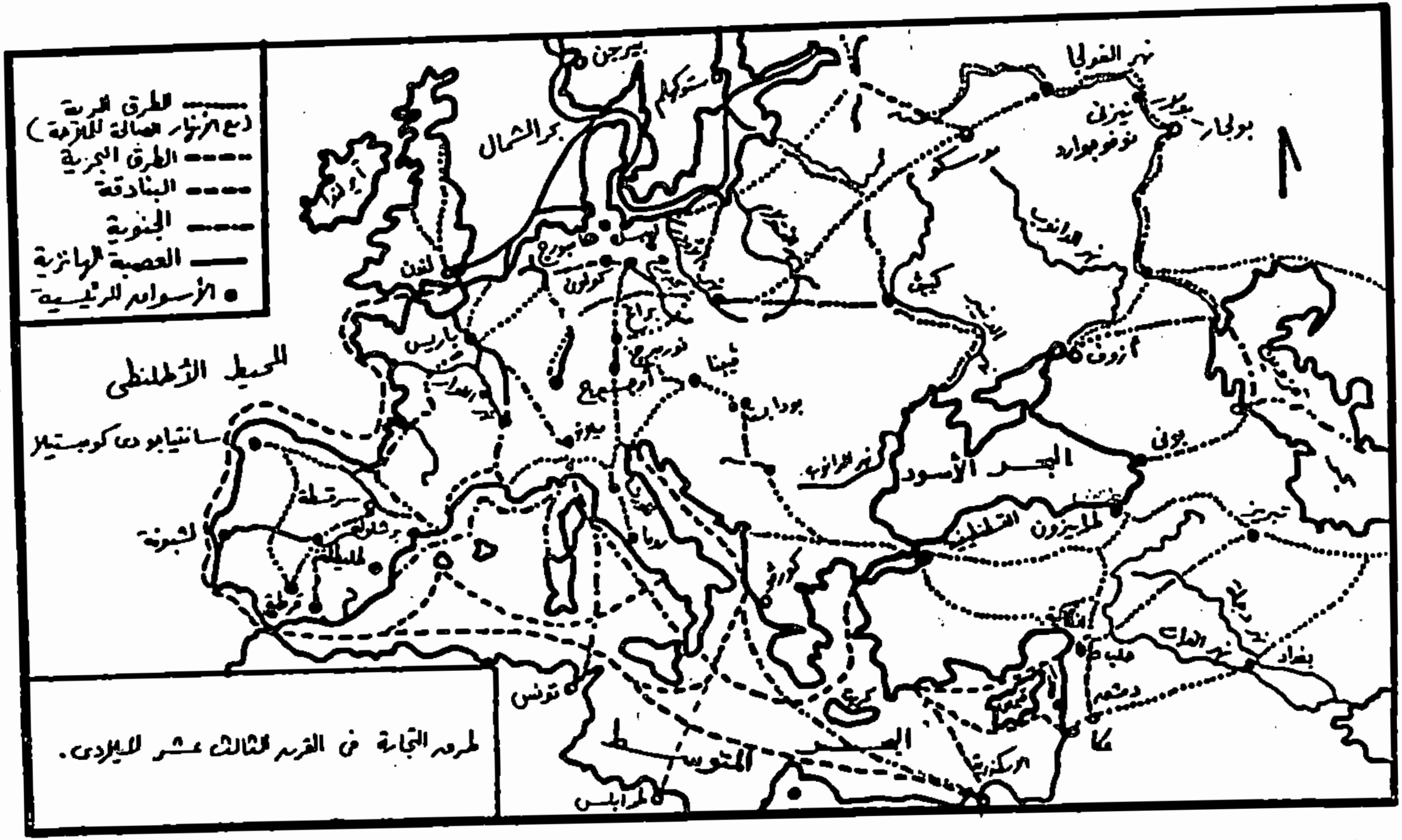

طرق التجارة في القرن الثالث عشر الميلادى.

يستمع إلى خطب الرهبان الحماسية، أو لمشاهدة المسرحيات التى تتناول المعجزات والأخلاق، والتى كانت موضوعاتها الرئيسية مأخوذة من قصص الكتاب المقدس. وكان البورجوازى يطلق نكاتا فجة عن رجال الكنيسة، ولكن السماء والجحيم كانا مكانين حقيقيين ولا شك فى وجودهما بالنسبة له. لقد كانت مدن العصور الوسطى المزدحمة غير الصحية، والقيود السياسية والقانونية التى كان البورجوازى يناضل ضدها، هى التى جعلت الناس المقهورين يتأرجحون ما بين التطرف فى السخرية والتهكم، والإخلاص الدينى.

وإبان القرن الثالث عشر كان هناك تزايد مستمر فى ثروات المدن وتطور فى مؤسساتها، ولكن هذا جلب فى أعقابه مشكلات جديدة للحياة البورجوازية التى كانت موبوءة بالفعل. ففى مدن الفلاندرز وشمال ايطاليا حيث الأنتاج الضخم للأقمشة الصوفية، وحيث تزدهر التجارة العالمية فى هذه الأقمشة، كان ثمة استقطاب متصاعد للثروة، وتصعيد الصراع الطبقى. إذ كان هناك شعور بالكراهية المتبادلة بين المعلمين المسيطرين على النقابات الحرفية وبين العمال والصبيان فى كل من هذه النقابات. كما كانت هناك عداوة متبادلة بين النقابات الغنية التى تشتغل بتجارة الأقمشة الدولية والنقابات العادية التى تنتج البضائع للاستهلاك المحلى. ففى مدن النسيج الفلمنكية مثل غنت Ghent، وفى المراكز الصناعية الايطالية، ولا سيما فلورنسا، ظهرت طبقة بروليتارية كبيرة فى القرن الثالث عشر. وعلى الطرف الآخر من الميزان الاجتماعى كانت تتربع أقلية من المقاولين والمتعهدين الذين جعلوا همهم السيطرة على حكومات المدن، وضمان الترتيبات التى تتناسب مع مصالحهم الخاصة، وأخيرا نشب صراع مرير بين هذه الأسر الحاكمة فى سبيل الفوز بالسلطة. وكلما كانت المدينة فى العصور الوسطى كبيرة، كلما كانت الصراعات السياسية والطبقية فيها أشد مرارة.

لقد حقق البورجوازيون فى القرن الثالث عشر تقدما كبيرًا فى مجال التطور الاقتصادى. ذلك أن حجم تجارة البحر المتوسط، والبحر البلطى، والشرق الأوسط، وأواسط آسيا وروسيا كان يتزايد بشكل مطرد. فقد استغل تجار شمال ايطاليا تجربتهم فى التبادل التجارى العالمى لتطوير المؤسسات المصرفية، بل أنهم صاروا أكثر ثراء باعتبارهم الوكلاء الماليين للبابوية. وفى منتصف القرن الثالث عشر أعادت أوربا استخدام العملات الذهبية فى التجارة العالمية على نطاق واسع، وقد صار الفلورين الذهبى، الذى سك للمرة الأولى لسد حاجة التجار الهولنديين سنة

١٢٦٥، بمثابة العملة القياسية لأوربا. وقد حقق البـورجوازيـون مستوى عـاليا من التعليم العام، ولم ينعكس هذا فى مجـال الأدب فقط (فى فرنسـا أولا ثم فى ايطاليـا) وإنما انعكس أيضا فى تطوير نظام الموثق المحترف الذى كانت مهمته كتـابة أعـداد لا تحصى من الوثائق التى صارت ضرورة لازمة لهذا المجتمع التجارى المتعلم.

ولكن البورجوازيين لم يكونـوا قادرين عـلى حل مشكـلاتهم السياسيـة، وعانت المدن الاضطراب الداخلى المستمر. ولأن المدن كـانت منقسمة عـلى نفسها كـما كان بنيانها طبقيا للغاية؛ فقد ضارت نظمها الانتخـابية نـظما غير مبـاشرة؛ لأنـه لم يكن هناك أحد يثق فى أحد آخر بحيث يعـطيه صـوته. ومـع نهاية القـرن الثالث عشـر كانت كثير من المدن الايطالية تتخلى عن حرياتها الكومونية، التى ناضلت قرونا فى سبيل الحصول عليها، وهو أمر كثيرا ما تحسر عليه المؤرخون الليبراليون المحدثون. فقد تخلى البورجوازيون عن السلطات السياسية إلى بودستا Podesta، أى دكتاتـور خرج من صفوف الطبقة الأرستقراطية المحليـة، بحيث أنشأ أسـرة وراثية فى المـدن التجارية الغنية.

وفى بعض مناطق أوربا حافظت الكومونـات على استقـلالها. إذ كـانت ما تـزال هناك «مدن حـرة» فى أراضى الراين فى القـرن الرابـع عشر. وأبـرز مجموعـة من الكوميونات المستقلة هى مدن البلطيق الألمـانية التجـارية التى تـألفت منها العصبـة الهانزية. فلم يكن تجار شمال ايطاليا يشتغلون بالتجـارة الواسعـة فقط، والتى كانت تمتـد من روسيـا حتى انجلتـرا، ولكنهم كـانـوا أيضـا يشكلون تحـالفـات سيـاسيـة وعسكـرية، وحـاربوا الملوك الاسكنـدنافيـين فى سبيل الهيمنـة على البحـر البلطى. وحيثما كانت توجد سلطة ملكية قوية، كان الاستقـلال الذاتى للبـورجوازيـين قليلا. فقد كانت المدن الفرنسية فى القرن الثالث عشر، وكذلك بعض مدن الجنوب واقليم الراين التى تتمتع بالامتيازات الكوميونية، قد خضعت للادارة الملكية النـاهضة. أمـا فى انجلترا، فإن الامتيازات السياسية والقانونية للبورجوازيين كانت أقـل كثيرًا من تلك التى حصل عليها نـظراؤهم فى القارة. فقـد كان تجـار لندن، حتى نهايـة القرن الثالث عشر تقريبا، ساخطين من جراء اصرار وزير المالية على أن وضعهم القانونى لا يكاد يختلف عن وضع الفلاحين فى الضيـاع الملكية، وهـو ما يعنى أن يخضـع كل البورجوازيين للضرائب الاعتباطية.

كانت إحدى الحقائق الأساسية فى حضارة القـرن الثالث عشـر تتمثل فى فشـل الطبقات التجارية والصناعية فى احراز قدر من الزعامة السياسية فى المجتمع. بل أن

الكومونات الايطالية كانت قد بدأت تفقد حريتها السياسية. فقد كانت حكومات الملكيات الصاعدة بأيدى ملاك الأراضى وخريجى الجامعات الذين لم يكونوا يهتمون بشيء سوى مصالح سادتهم الملكيين، على الرغم من أن كثيرين منهم كانوا من أبناء الطبقة البورجوازية. وكان الملوك. والسادة الاقطاعيون، والعلماء ما يزالون قادة المجتمع الأوربى. ولم تترجم الأهمية الاقتصادية للبورجوازيين إلى زعامة سياسية واجتماعية حتى أواخر القرن الثامن عشر، والقرن التاسع عشر.

أما أكبر طبقات المجتمع فى العصور الوسطى، والتى كانت تضم غالبية السكان، فقد كانت طبقة خرساء. فليس ثمة أدب يعبر عن الفلاحين فى القرن الثالث عشر، ولم يحدث سوى فى القرن الرابع عشر أن ظهر نوع من الكتابة يمكن اعتباره معبرا عن وجهة نظر الفلاحين. فالمرجح أن القصيدة المعروفة باسم Piers Plowman(٥) كتبها أحد القساوسة الانجليز الفقراء، الذين غالبا ما كانوا هم أنفسهم من أبناء طبقة الفلاحين. ذلك أن نغمة هذه القصيدة الملتاعة، المريرة، الأخروية تشى بأن الفلاح كان يدرك تماماً أن الطبقة الحاكمة فى المجتمع تستغله، كما أنه كان فى الوقت نفسه مخلصًا لتعاليم الكنيسة التى كان ينقلها إليه القساوسة الأبرشيون والرهبان الجوالون. وليس أمامنا من سبيل يجعلنا نعرف على وجه التأكيد كم كانت آراء وليم لانجلاند William Longland، مؤلف قصيدة Piers Plowman متوافقة مع آراء الفلاحين.

إذ يخبرنا المؤرخون الاقتصاديون، من واقع دراستهم للسجلات الاقطاعية، أن الأحوال الاقتصادية للفلاحين كانت آخذة فى التحسن فى معظم أنحاء أوربا، ولا سيا فى فرنسا وألمانيا، فى القرن الثالث عشر. ذلك أن التأثير المركب للاقتصاد النقدى، وحركة التعمير، أتاحت للفلاحين سبيل الهروب من الواجبات القنية والخدمات الاقطاعية القديمة. فقد بنى البعض «قرى جديدة» فى الأراضى الخالية،

---

(٥) قصيدة Piers Plowman قصيدة رمزية انجليزية طويلة تنسب إلى وليم لانجلان (حوالى سنة ١٣٣٠ - ١٤٠٠). وهى عبارة عن قصيدة دينية تجسد الكنيسة، والحقيقة، والعقل، والغش، والجوع.. وما إلى ذلك. وهى فى معظمها مكتوبة بلغة الحياة اليومية البسيطة، ولكنها غنية بالمضامين ويكونها مصدرًا للبحث العلمى. كما أنها كانت مفيدة كمصدر للمعلومات عن الحياة اليومية، والجوانب المادية فى حضارة القرن الرابع عشر فى الريف الإنجليزى.

انظر: The Illustrated Ency. of Med. Civilization. (1980)

(المترجم).

على حين انضم البعض الآخر إلى حركة الزحف صوب الشرق حيث كان السادة الألمان يمنحونهم شروطا مغرية للاستقرار. أما أولئك الذين بقوا فى قراهم ذات الحقول المفتوحة، فغالبا ما تمكنوا من التوصل إلى اتفاق مع سادتهم باستبدال الخدمات الاقطاعية بايجارات نقدية. وهكذا، كان القن فى فرنسا وألمانيا فى طريقه لأن يصير مزارعا صغيرا مستقلا. حقيقة أنه كان ما يزال عرضة للاستغلال على أيدى السادة الاقطاعيين المحليين، وكان محطا لازدراء البورجوازيين، وكان كبار القساوسة يتجاهلونه، بيد أنه كان أفضل حالا مما كان عليه قبل قرنين من الزمان.

ويبدو أنه كانت هناك اختلافات أفقية ورأسية كبيرة فى وضع الفلاح. إذ كان الأقنان الانجليز أقل توفيقا فى تحقيق حريتهم، ربما لأن الفرسان الانجليز كانوا أشخاصا قساة قبعوا فى بلادهم واعتنوا بإدارة ضياعتهم أكثر مما فعل السادة الفرنسيون. أما فى ايطاليا فقد كان الفلاحون يعانون من سيطرة البورجوازيين الذين كانوا يشترون الأرض ويستغلونهم دونما شفقة. وكان هناك تدرج عميق داخل طبقة الفلاحين نفسها - ما بين أولئك الفلاحين الأثرياء الذين يملكون المحاريث، والحيوانات، والمزارع وأولئك العمال اليوميين ممن لا يملكون أرضا والذين كان وجودهم هامشيا.

والتحسن العام فى أحوال الفلاحين أبان القرن الثالث عشر لا ينبغى أن يعمينا عن حقيقة أنهم كانوا هم «الطبقة الداكنة dark people» فى حياة العصور الوسطى. فلم يكن أمام الفلاحين مهرب من مسار حياتهم الذى كان يبدأ بالميلاد، وينقضى فى العمل، وينتهى بالوفاة، فقد كان هذا يبدو مسارا بلا نهاية. ولأن الفلاح لم يكن يملك العلف الكافى لحيواناته فى الشتاء، فإنه كان يضطر إلى ذبح معظمها فى ديسمبر. وبعد أن يتخم نفسه بالأكل فى عيد الميلاد الذى يمتد اثنى عشر يوما، لم يكن يتبقى له شيىء من اللحم الطازج حتى زمن الربيع، وعبر سنوات طوال كان شبح الموت جوعا يحوم حول كوخه المتداعى. وكانت تسليته الوحيدة هى خدمة يوم الأحد الصباحية التى يقوم بها قسيس نصف متعلم، أو موعظة يلقيها أحد الرهبان الجوالين. وبين هذا الفلاح البهيم الغبى، والذى لم تكن شرارة الذكاء تبرق فى ثنانيا عقله المعتم الا فى أحيان متباعدة، وكاتدرائيات الفكر التى كان الجامعيون يشيدونها فى المدن الجامعية النائية، كان الجسد الكلى للتقدم الأنسانى يتثاءب نافضا عن نفسه غبار الرقاد الطويل.